إسقاط تدبير القلب
والعمل بالأسباب في مفهوم
ابن عطاء الله السكندرى

أستاذ مساعد
هدى عبد الحميد زكى

مقدمة :

الحمد لله تعالي رب العالمين ، اللهم صلي وسلم وبارك علي سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

من الهام جداً في بداية هذا البحث أن أوضح(كما سيأتي بتفصيل) أن إسقاط التدبير ليس المقصود منه أي جبر في سلوك الإنسان ، فهو يتنافى تمامًا مع مذهب الجبر المعروف ، حيث إنه الاختيار في أسمي معانيه الإيمانية .

وهو مفهوم التوكل على الله (سبحانه وتعالى) في أعلي مقاماته اليقينية .

فإنه الإسلام : عقيدة ، وشريعة ، وأخلاق في سمو صفاته وثمرته يقين العبودية الخالصة لوجه الله(وعز وجل).

ومن الجدير بالذكر أن أوضح أن ابن عطاء الله السكندري كان شيخاً للإسلام يعمل بالفقه ، والتدريس إلى آخر ساعة في حياته ، فكما كان زاهداً بالقلب كان عاملاً بالأسباب ومتوكلاً على مسبب الأسباب (عز وجل) .

ومن ثم فى كتابه (التنوير في إسقاط التدبير) يترل بالنفس إلى واقع أحداثها الدنيوية من الهموم والغموم التي تثقلها ، وبسهولة ويسر يعالج ذلك بواقعية شديدة كل الأمراض المستعصية فيها ، سواء كانت تخص النفس ، أو القلب .

ما أشد حاجتنا إلى فهم نهـــج ابن عطاء الله السكندري في تنويره للسلوك الإيماني الصحيح ، وخاصة في هذا العصر ، التي أسست الحياة فيه على النهم المادي ؟

فقد تعقدت حياة الإنسان بمكونات مادية زائلة ؟ ومن ثم كثرت وانتشرت الأمراض النفسية ، والعضوية ، من كثرة هذا التعقيد ، وعصيـــان الله(سبحانه وتعالى) فيه.

قال الإمام ابن عطاء الله السكندري :

﴿ أرح نفسك من التدبير فما قام به غيرك عنك لا تقم به أنت لنفسك﴾

ومن ثم فإن الأساس لنهج وسلوك ابن عطاء الله السكندري ، وما تعلمه من سلوك مشايخه هو إسقاط تدبير القلب ، فبدونه يقف السالك في هموم وغمـــوم لا آخر لها، ولا يستطيع له أي ترق إلى عمل صالح، أو تطهيره من مساوئ نفسه ، وتحليه بالأخلاق الصالحة والمثل العليا في أخلاق رسول الله ﷺ وصحابته (رضوان الله عليهم) .

فإن كل التخلي من مساوئ النفس ، والتحلي بالأخلاق الصالحة لا يكون إلاّ بتدريب النفس وتهذيبها على هذا الخلق العظيم .

ولذلك فإن مقياس تغير النفوس وترقيها إلى ما حيث يرضي رسول الله ﷺ لا يكون إلا بهذا الخلق العظيم في مراحل مترقية ، مرحلة تلو الأخرى ، فيها تصفو القلوب من شوائبها وتتحلى بالفضائل .

قال الإمام أبو الحسن الشاذلي (رحمه الله) للمبتدئ في الطريق الصوفي:

(إن كان ولابـــد مـــن التـــدبير فدبروا أن لا تدبروا)

أي إن كان التدبير عادة خلقية متمكنة في قلوب المبتدئين لتعلم الأسس الإسلامية الصحيحة ، فلابد أن يشغلوا أنفسهم باستغلال هذه العادة المتمكنة في أن لا يدبروا ، إلى أن ينتهي هذا الخلق المتمكن من النفس، وهذا في حد ذاته تدبيرا لكي لا يدبروا .

ومن ثم فإن كل ســـوء وضرر للإنسان أثر من أثاره ، سواء كان أخلاقاً باطنة ، أو ظاهرة ، أو أمراض القـــلوب ، وكذلك الأمراض النفـــسية ، والعضـــوية ، (سوف أتحدث عن ذلك بالتفصيل) .

لم يكن ابن عطاء الله أول من تكلم عن التدبير ، بل كما سيتبين كل عارف بالله تطرق إلى هذا الموضوع بقول أو أكثر ، فإنها قضية الإنسان الأساسية في التكليف ، لكن ابن عطاء

الله له الفضل الأول بفضل الله تعالى عليه أن وضع له مؤلفاً يشرح فيه خواطره ، وهو كتاب هام جداً للعوام والخواص من الناس .

فقد جمع فيه أسس هذه القضية الهامة وفروعها ، وقد شرحها شرحاً وافياً، مع استشهاده بالكتاب والسنة.

أذكر من الأقوال الهامة فى هذا الموضوع : قول أبو عبد الله محمد بن على الترمذي الحكيم : (المولود في أواخر العقد الثاني من القرن الثالث الهجري،المتوفى تقريباً بعد ٣٢٠هـــ)[١] أثناء شرحه لمعني الإسلام :

" فصل في ذكر الإسلام ، وبدايته ترك الاختيار ، والتسليم لله ولأمره ، وفعله الرضا وضده الشرك ، والامتناع في التسليم" [٢] .

وقال أيضاً في شرحه لمقام الرضا:

" فصل في الرضا ، أصله أن تروض همتك بانكسار اختيارك تحت إختيار الله تعالى ، وفعله أن توافق الله (عز وجل) فيما اختاره ، وضده السخط " [٣] .

وقال في شرحه لمعني التفويض : " فصل في التفويض اصله إلقاء التدبير إلى الله تعالى....." [٤] .

وقال ذو النون المصري رحمة الله تعالى :(المتوفى سنة خمس وأربعين ومائتين من الهجرة) [٥] ، معرفاً التوكل : " التوكل ترك تدبير النفس ، والانخلاع من الحول والقوة " [٦]

(١) معرفة الأسرار ، الإمـــام أبي عبـــد الله بن محمد بن على الترمـــذى الحكـــيم ، ط دار التأليف ، ص ٢٥ – ٢٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧١ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٧٦ .

(٥) الطبقات الكبرى : الإمام الشـــعراني : ط الحلبي ، ص ٦٠

(٦) الغنية لطالبي طريق الحق ، الشـــيخ عبـــد القادر الجيلانى ، ط الحلبي ، الطبعـــة الثالثـــة (١٣٧٥ –١٩٥٦م) ، جـــ١ ، ص ٦٠.

خطة البحث :

بناءً على كتاب ابن عطاء الله في إسقاط التدبير ، في عرضه وشرحه لهذا المنهج العظيم في تقويم سلوك الإنسان لما يحبه الله عز وجل ، ورسوله ﷺ ، وكذلك الأسس العامة في قواعد إسقاط التدبير ، وجوانب الضعف في الإنسان ، وثغرات مداخل الشيطان ، وإلحاح النفوس في الشهوات والأهواء.

كانت خطة البحث مقسمة ثلاث أبواب رئيسية ، يوضح ذلك بالتفصيل التالي :

أولاً : مقدمة البحث :

تناولت أهمية هذا البحث ، وأهمية هذا المنهج بالنسبة لابن عطاء الله السكندري وبالنسبة للمسلم . كما وضحت خطة البحث .

ثانياً : (الباب الأول) إسقاط التدبير ... وحياة ابن عطاء الله السكندري .

الفصل الأول : حقيقة الإيمان .. فيما تضمنه كتاب إسقاط التدبير :

الفصل الثاني : حياة ابن عطاء الله السكندري.. وأثر إسقاط تدبيره:

ثالثاً : (الباب الثاني) : قواعد إسقاط التدبير وأسسه :

الفصل الأول : العلم والمعرفة والعمل بهما :

الفصل الثاني : نعمة العقل والتدبير الممدوح .

الفصل الثالث : وبال التدبير المذموم وخطره .

رابعاً : الخاتمة :

الباب الأول

إسقاط التدبير ..

وحياة ابن عطاء الله

تمهيد :

إن علو ابن عطاء الله السكندري في سماء المعرفة يرجع إلى سلوكه لهذا المنهج العظيم ، وتطبيقه له في حياته .

فمن أثره البيِّن عليه حكمه العظيمة ، وأثرها القوى على الكثير ، والكثير في عصره .. وإلى الآن لها مكانة عظيمة لدى العلماء ، وأهل المعرفة .

ومن ثم فإن إرتباط ابن عطاء الله السكندري العالم ، والعارف بالله عز وجل ، والفقيه بهذا المنهج العظيم : لا ينفصم ، فإن من يعرف ابن عطاء الله يعرف إسقاط التدبير ، ومن يعرف إسقاط التدبير يعرف ابن عطاء الله السكندري ، الذي طبقه على نفسه أولا ، فصارت حياته قدوة طيبة إلى يومنا هذا .

فلقد عاش رضي الله عنه خير الحياة في معرفة الله (عز وجل) ، فقد عرف الله في علمين جليين (كما

سيتضح) بواقع عملي ، في جهاده لنفسه من عبادة خالصة لله عز وجل ، إلى يقين العبودية الصادقة ، وببصيرة صافية لله سبحانه وتعالى .

لم يتكلم عن هذا العلم الجليل الذي هو خير العلوم ، وأساسه بقدر ما عرفه تطبيقاً وزهداً ، وورعا ويقيناً بالله (عز وجل) .

ولقد حوى هذا المؤلف العظيم حكماً عظيمة يكمن وراءها معارف عظيمة ، على الرغم أنه ليس كبيراً بالنسبة لموضوعاته القيمة .

حيث وضحه بقلب خاشع لله عز وجل ، فبين لنا مختلف درجات الناس ومقاماتهم ، ومن ثم كان مؤثراً على العقول والقلوب معاً .

ولذلك قال أ.د .أبو الوفا التفتازاني (رحمه الله تعالى) عن أهمية فكرة إسقاط التدبير في حياته: " ... ولا نكون مجانبين الصواب إذا قلنا أن فكرة إسقاط الإرادة والتدبير تكمن عند شيخنا السكندري وراء كل فكرة صوفية أخرى لـــه ، وأنها الأساس المتين لبناء مذهبه الصوفي"[1].

وإن لهذا الكتاب أهمية كبرى في علوم الصوفية ، على وجه الخصوص الطريقة الشاذلية.

فهو يعد الأول في هذا الموضوع:

في تصويره ، وعرض أهميته في النهج الإسلامي السلفي الصحيح ، كما تعد أهميته الكبرى في معرفة آفات النفس ، وعلاجها.

ومن ثم فأهميته واضحة في العلاج النفسي ، وخاصة في هذا العصر الذي غلب فيه الجانب المادي على الروحي.

كما يعد أيضاً من أهم المؤلفات في عرض علم الأخلاق الإسلامية .

ومن ثم شهد له كثير من العلماء أبرزهم الإمام ابن عجيبة حينما أراد أن يتحدث عن ابن عطاء الله وإسقاطه التدبير .

---

(١) ابن عطاء الله ...وتصوفه ، أ د التفتازاني ، ط الأنجلو ، ص ١٢١ .: ص ١٢١ .

" ... وقد ألف الشيخ رضى الله عنه فيه كتاباً سماه " التنوير في إسقاط التدبير " أحسن فيه وأجاد "

وكتاب التنوير افتتن به الكثير من رجال القلوب والبصائر ، وأسلموا قيادهم لله سبحانه في أمورهم ، بسبب ما كشف لهم من غوامض سر عدم تدبيرهم ، وسقوط اختيارهم ، وذلك لما اشتمل عليه من فوائد مفيدة في التوجيه والإرشاد إلى التسليم ، وعدم منازعة المقادير ، والتزام الخلق بإسقاط التدبير مع الخالق [1].

وعلى ذلك كان سبب تأليفه الكتاب كما ذكر :

" ... لا يصل عبد إلى الرضا إلاّ بالرضا ، ولا يبلغ إلى صريح العبودية إلاّ بالاستسلام إلى القضا ، فلم تطرقهم الأغيار ، ولم ترد عليهم الأكدار " [2].

" وإن من طلب الوصول إلى الله تعالى : فحقيقٌ عليه أن يأتى الأمر من بابه ، وأن يتوصل إليه بوجود أسبابه .

وأهم ما ينبغي تركه ، والخروج عنه ، والتطهر منه ، وجود التدبير ، ومنازعة المقاديـــر ، فصنفـــت هـــذا الكتـــاب مبينـــاً لذلك ، ومظهراً لما هنالك ، وسميتـــه (التنوير في إسقاط التدبير) ليكون اسمه موافقا لمسماه ، ولفظه مطابقاً لمعناه ، والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم .. وأن ينفع به الخاص والعام .. " التسليم وعدم التدبير [3].

يتبين إذن : أن باب الوصول إلى الله عز وجل وطريقه هو : إسقاط التدبير بمفهومه الصحيح الذي سوف يتبين في منهج ابن عطاء الله .

---

(١) ابن عطاء الله .. وتصوفه ، ص ١٢١.

(٢) تابع مقدمة كتاب إســقاط التــدبير ، ط القاهرة الحديثة ، ص ١٢.

(٣) الكتاب نفسه ، ص ٢١ ، ٢٨.

الفصل الأول

حقيقة الإيمان فيما تضمنه كتاب إسقاط التدبير

لقد عرض الإمام ابن عطاء الله كثير من الآيات الكريمة والأحاديث الدالة على ترك التدبير ، ومنازعة المقادير (كما قال) منها: قال الله تعالى: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٢)

وقال ﷺ " ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً ، وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً " (٣)

وقد ذكر أن الآية الأولى :﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ ... ﴾ فيها دلالة على أن الإيمان الحقيقي لا يحصل إلاّ لمن حكم الله ورسوله ﷺ

(١) سورة النساء : أية ٦٥.

(٢) سورة القصص : أية ٦٨ .

(٣) رواه مسلم عن العباس ابن عبد المطلب ورواه أحمد في مسنده والترمذي .

على نفسه قولاً وفعلاً ، وأخذاً ، وتركاً ، وحباً وبغضاً .

ويشمل ذلك حكم التكليف ، وحكم التصريف ، والتسليم والإنقياد واجب على كل مؤمن في كليهما .

فأحكام التكليف :

الأوامر ، والنواهي المتعلقة باكتساب العباد .

وأحكام التصريف كما قال :

هو ما أورده عليك من قهر المراد ؛ أي البلاء والأحداث القهرية ، سواء كانت قهرية مطلقة ، أو بأسباب بينة من نفس المبتلي ، أو من غيره .

ومن ثم رأى أن حقيقة الإيمان لا تحصل إلا بأمرين :

{ بالإمتثال لأمره ، والإستسلام لقهره }

ولذلك أوجب على العباد "الاستسلام لحكمه ، والإنقياد لأمره؛ حتى يذعنوا لأحكام رسول الله ﷺ لأنه كما وصفه ربه :

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ (١) .

وقد أضاف نفسه (تعالى) إلى ﴿فَلا وَرَبِّكَ ﴾ إشارة لعظيم قدره وتفخيم أمره ﷺ .

ثم إنه تعالى لم يكتفِ بالتحكيم الظاهر فيكونوا به مؤمنين ، بل اشترط فقدان الحرج ، وهو الضيق من نفوسهم في أحكامه ﷺ ، سواء كان الحكم بما يوافق أهواءهم ، أو يخالفها ، أي تسليم القلب وتفويضه الحكم للحاكم عز وجل (٢) .

سبب وجدان الحرج في النفس :

لقد وضح ابن عطاء الله أن ضيق النفوس ، لفقدان الأنوار ووجود الأغيار ، فعن سوء النفس يكون الحرج ، وهو الضيق ، والمؤمنون

(١) سورة النجم : أية ٣ – ٤ .

(٢) الكتاب نفسه : ص ٢٩ : ٣٣ (بتصرف).

ليسوا كذلك لأنهم على نور من ربهم .

إذ نور الإيمان ملأ قلوبهم ، فاتسعت ، وانشرحت ، فكانت واسعة بذور الواسع العليم ، ممدودة بوجود فضله العظيم ، مهيأة لواردات أحكامه .

ومن ثم ذكر أن حديث رسول الله ﷺ : " ذاق طعم الإيمان من رضي الله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ".

فيه دليل على أن من لم يكن كذلك لا يجد حلاوة الإيمان ، ولا يدرك مذاقه ، وإنما يكون إيمانه صورة لا روح فيها ، وظاهراً لا باطن له ، ومرتسماً لا حقيقة تحته.

وفيه إشارة إلى أن القلوب السليمة من أمراض الغفلة ، والهوى تتنعم بملذوذات الأطعمة.

وإنما ذاق طعم الإيمان من رضي رباً ، لأنه لما رضي بالله رباً ، استسلم له وانقاد لحكمه ، والقي قياده إليه خارجاً عن تدبيره ، واختياره إلى حسن تدبير الله واختياره ، فوجد لذاذة العيش ، وراحة التفويض .

ولما رضي بالله رباً ، كان له الرضا من الله ، كما قال الله تعالى : ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (1) وإذا كان له الرضا من الله : أوجده الله حلاوة ذلك ، ليعلم ما منَّ به عليه ، وليعلم إحسان الله إليه .

ولا يكن الرضا بالله إلاّ مع الفهم.

ولا يكون الفهم إلاّ مع النور.

ولا يكون النور إلاّ مع الدنو .

ولا يكون الدنو إلا مع العناية .

لكن لو سقم قلبه بالغفلة عن الله لم يدرك ذلك ، لأن المحموم ربما وجد طعم السكر مراً ، وليس هو في نفس الأمر كذلك.

فإذا زالت أسقام القلوب أدركت الأشياء على ما هي عليه ، فتدرك حلاوة الإيمان ولذاذة الطاعة ، ومرارة القطيعة والمخالفة .

فيوجب إدراكها لحلاوة الإيمان اغتباطها بـه ، وشهـود المنـة من

(1) سورة المائدة : أية ١١٩

الله عليهـا فيه ؛ وتطلب الأسباب الحافظة للإيمان ، والجالبة له .

ويوجب إدراك لذاذة الطاعة المداومة عليها ، وشهود المنّة من الله فيها.

ويوجب إدراكها لمرارة الكفران والمخالفة الترك لهما ، والنفور عنهما ، وعدم الميل إليها ، فيحمل على الترك للذنب ، وعدم التطلع إليه .

وليس كل متطلع تاركاً ، ولا كل تاركاً غير متطلع .

وإنما كان كذلك :

لأن نور البصيرة دال على أن المخالفة لله والغفلة عنه سم للقلوب مهلك ، فنفرة قلوب المؤمنين عن مخالفة الله تعالى ، كنفرتك عن الطعام المسموم ، ولذلك فإن الشيطان لا سبيل له إليهم .

وقوله " .... وبالإسلام دينا " : بامتثال الأوامر ، والانكفاف عن وجود الزواجر ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

وقوله ﷺ: ".... وبمحمد نبياً".

أن يكون له ولياً ، وأن يتأدب بآدابه ، وأن يتخلق بأخلاقه زهداً في الدنيا وخروجاً عنها ، وصفحاً عن الجناية ، وعفواً عمن أساء إليه .. إلى غير ذلك من تحقق المتابعة قولا وفعلا، وأخذاً ، وتركاً ، وحباً ، وبغضاً ، وظاهراً وباطناً .

فمن رضي بالله : استسلم له .

ومن رضي بالإسلام : عمل له .

ومن رضي بمحمد ﷺ : تابعه

ولا تكون واحدة منها إلاّ بكلها (1)

مجمل ما تبين في حقيقة الإيمان

لقد بين الإمام أن حقيقة الإيمان الصحيح في العمل الصادق بتسليم وتفويض الأمر لله عز وجل ورسوله بتذوق حلاوته ، ولا يتم ذلك إلا بدنو النفس ، ولا يتم الدنو إلا مع النور ، ولا يتم النور إلاّ مع الفهم.

(1) الكتاب نفسه:ص٥٤ : ٥٨ (بتصرف).

وإن القلب لو كان سقيماً بالغفلة عن الله عز وجل لا يعرف هذه الحلاوة، ولا يتصورها ، فهو كالمحموم الذي فقد تذوق الأشياء .

وخاصة أن الكثير من الناس يعملون بقوالبهم ، وقلوبهم في غفلة ولذلك إيمانهم صورة لا روح فيها.

إذن يتضح أن التذوق الحقيقي ، وسعادة الإنسان لا تكون إلاّ مع الله عز وجل في الفهم ، والنور ، والدنو ، والعناية في كل أمر ونهى، وكل دقيقة، وصغيرة تصدر من النفس.

أما السعادة التي يتمناها الإنسان في الدنيا الغافل عن الله سبحانه وتعالى، فهي خيال ، وليست حقيقة.

مقامات اليقين وإسقاط التدبير :

لقد رأى الإمام عطاء الله السكندري أن طريق اليقين للسالك في تسعة مقامات هى :

التوبة – الزهد – والصبر – والشكر – والخوف – والرضا – والرجاء – والتوكل – والمحبة.

ولأن إسقاط التدبير هو أساس السلوك الصحيح في الحياة الإيمانية ، لذلك لا يصح كل واحدة منها إلاّ بإسقاط التدبير و الاختيار مع الله ؛ فالتائب أولاً ينوى التوبة من ذنبه ، كما ينوى التوبة عن التدبير مع ربه ، فيتوب من هذا وذاك .

لأنه رأى أن التدبير والاختيار من كبائر القلوب والأسرار ، والتوبة هي: الرجوع إلى الله تعالى من كل ما لا يرضاه لك .

وكيف يصح توبة عبد مهموم بتدبير دنياه ، غافل عن حسن رعاياه؟!!

وكذلك الزهد لا يصح إلاّ بالخروج عن التدبير ؛ لأنه مما أنت مخاطبٌ بالخروج عنه ، والزهد فيه : تدبيرك .

إذ الزهد : زهدان : أولاً : زهد ظاهر جلى .

ثانياً : زهد باطن خفي .

فالظاهر الجلي : الزهد في فضول الحلال من المأكولات ، والملبوسات ، وغير ذلك .

والزهد الخفي: الزهد في الرياسة، وحب الظهور ، ومنه الزهد في التدبير مع الله (عز وجل) .

وكذلك لا يصح صبر ، ولا شكر إلاّ بإسقاط التدبير ؛ وذلك لأن الصابر من صبر عما لا يحبه الله ؛ ومما لا يحبه الله تعالى التدبير معه والاختيار.

لأن الصبر على أقسام :

صبر عن المحرمات .

وصبر في الواجبات .

وصبر عن التدبيرات والاختيارات.

أو صبر عن الحظوظ البشرية ، وصبر على لوازم العبودية .

ومن لوازم العبودية :إسقاط التدبير مع الله تعالى .

وكذلك لا يصح شكر إلاّ بعد ترك التدبير مع الله ، لأن الشكر كما قال الجنيد[1] رحمة الله تعالى: (الشكر أن لا تعصي الله بنعمة) .

وكذلك مقام الخوف والرجاء إذ الخوف إذا توجهت سطواته إلى القلوب منع وجود التدبير مع الله عز وجل .

إن الراجي قد امتلأ قلبه فرحاً بالله ، ووقته مشغول بمعاملة الله تعالى؛ فأي وقت يسعه التدبير مع الله تعالى؟!

ويناقض أيضاً : مقام التوكل ؛ وذلك أن المتوكل على الله ، من ألقى قياده إليه واعتمد في كل أموره عليه.

---

(١) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد الزجاج رضي الله عنه ، أصله من نهاوند ، مولد ومنشأه بالعراق ، كان فقيهاً يفتى الناس على مذهب أبي ثور صاحب الإمام الشافعي ، كان من كبار أئمة القوم وسادتهم توفي سنة سبع وسبعين ومائتين ، وقبره ببغداد يزوره الخاص والعام . (الطبقات الكبرى الإمام الشعراني ، جـ١ ص٧٢) .

فمن لازم ذلك عدم التدبير والإستسلام ؛ لجريان المقادير.

ولذلك يرى أن تعلق إسقاط التدبير بمقام التوكل والرضا أبينّ من تعلقه سائر المقامات ، وذلك لأن الراضي قد اكتفي بسابق تدبير الله فيه، فكيف يكون مدبراً معه ، وهو قد رضي بتدبيره ؟ ألم تعلم أن نور الرضا يغسل من القلوب غثاء التدبير؟

فالراضي عن الله ، بسطه نور الرضا لأحكامه ، فليس له تدبير مع الله، وكفي بالعبد حسن إختيار سيد له.

ويناقض أيضاً : مقام المحبة ، إذ المحب مستغرق في حب محبوبه ، وترك الإرادة معه هي عين مطلوبه ، وليس يتسع وقت المحب للتدبير مع الله ، لأنه قد شغله عن ذلك حبه لله ، ولذلك قال بعضهم :

" من ذاق شيئاً من خالص محبة الله ، ألهاه ذلك عما سواه " [1] .

إسقاط التدبير ، ومقام العبودية :

إن كل المقامات درجات للصعود إلى مقام العبودية ، وقد عبر عن ذلك ابن عطاء فرأى أنها كالخدمة له.

فإن أشرف مقام هو العبودية الخالصة لله تعالى ، وإسقاط التدبير لله عز وجل هوعلامة العبودية ، قال تعالى :﴿ كٓهيعٓصٓ @ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّا ﴾ [2].

وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [2]

وبناءً على ذلك رأي ابن عطاء الله أن العبادة ظاهر العبودية ، والعبودية روحها . وإذ قد فهمت هذا فروح العبودية وسرها إنما هو ترك الاختيار ، وعدم منازعة الأقدار ، فتبين من هذا أن العبودية ترك التدبير والاختيار مع الربوبية ، فإذا كان لا يتم مقام العبودية الذي هو أشرف

(١) الكتاب نفسه ص ٦٢ ، ٦٣ بتصرف .

(٢) سورة الذاريات : أية ٥٦ .

المقامات إلاّ بترك التدبير ، فحقيق على العبد أن يكون له تاركاً ، وللتسليم لله تعالى ، وللتفويض له سالكاً ، ليصل إلى المقام الأكمل ، والمنهج الأفضل [1]

إذن العبودية :

هي الحكمة من وجود الثقلين الجن والإنس ، لقولة تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي ليعرفونَ كما ذكر مَن تفسيرها ، وأن العبودية حقيقة تخص القلب ، والعبادة ظاهرها ، ولا تتم العبادة بمفهومها الصحيح من الإخلاص ، والصدق إلاّ بسلامة القلب من الأسقام والأغيار ، والتفويض والتسليم بمعناهما الإسلامي الصحيح.

أفضل الكرامات فى إسقاط التدبير:

الكرامة كما هى معروفه : ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص ، غير مقارن لدعوى النبوة .

وما لا يكون مقروناً بالإيمان والعمل الصالح يكون استدراجاً ، وما يكون مقروناً بدعوى النبوة يكون معجزة [2] ، ومن ثم يرى الإمام ابن عطاء أن حقيقة الكرامة في خلاص العبد من هموم التدبير ، ووصوله إلى مقام الرضا بربه .

وعلى ذلك :

لقد وصف ابن عطاء بكلام حكيم طريق الوصول إلى أجل وأفضل الكرامات من الله عز وجل ، فمن ذكره قوله :

إن أردت أن يكون لك من الله اختيار فأسقط معه الاختيار .

وإن أردت الوصول إلى المراد فذلك بألا يكون معه مراد [3] .

ولذلك لما قيل لأبي يزيد [4] .

(١) الكتاب نفسه ، ص ١٠٠ - ١٠٣ بتصرف .

(٢) التعريفات : الجرجاني : ط الحلبي ، ص ١٦١ .

(٣) الكتاب نفسه : ص ١١٠ .

(٤) هو أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي ، كان جده مجوسياً وأسلم ، كان من أسرة

ما تريد ؟ قال : " أريد أن لا أريد "

فلم تكن أمنيته من الله ، ولا طلبه منه إلاّ سقوط الإرادة معه ، لعلمه أنها أفضل الكرامات ، وأجل القربات .

وقد تظهر كرامة ظاهرة ، وبقايا التدبير كامنة في كثير من السالكين ، لكن الكرامة الكامنة الحقيقية إنما هي : ترك التدبير مع الله، والتفويض لحكم الله .

إذن الكرامة ، ربما تكون استدراجاً ، وهلاكاً لصاحبها ، فالعبرة بحسن الختام .

ولذلك قال ابن عطاء :

" فاعلم أن الكرامة لا تكون كرامة حتى يصحبها الرضا عن الله ، ومن لازم الرضا من الله ترك التدبير معه ، واسقاط الاختيار بين يديه .

زاهدة ، محبة للعبادة وأداء الشريعة ، مات رحمة الله عز وجل سنة إحدى وستين ومائتين ، وقيل أربع وثلاثين ومائتين (رضي الله عنه) : (الرسالة القشيرية : تحقيق أ د عبد الحليم محمود : جـ١ : ص٨ .)

ولذلك قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رحمه الله تعالى :

" كل مختارات الشرع ، وترتيباته ليس لك منها شئ وأسمع وأطع . وهذا موضع الفقه الرباني ، والعلم اللدني ، وهو أرض لتنزل علم الحقيقة المأخوذ عن الله لمن استوى "

أى أن الشريعة أرض لتنزل علم الحقيقة ، ونور البصيرة .

ومن ثم أن إرادة أبا يزيد عن العبودية المقتضاه منه ، فقد علم أن الطريق الموصل إلى الله تعالى هو محو الإرادة .

ولذلك فإن الشيخ أبو الحسن رحمه الله تعالى :

" لـن يصل الولي إلى الله ، ومعه تدبير من تدبيراته ، واختيار من اختياراته " [1] .

---

(١) الكتاب نفسه: ص ١١٣ : ١١٤ : بتصرف .

قال الله تعالى : ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾ [1]

ومعني ذلك أن سلطان الغواية من الشيطان والنفس ، لا يأتي إلاّ بهموم التدبير المادية الزائلة ، ولذلك وصف ابن عطاء الله عباد الله تعالى :

فقلوب ليس للشيطان عليها سلطان ، من أين يطرقها وساوس التدبير؟ أو يرد عليها وجود التكدير.

وفي الآية بيان أن من صح الإيمان بالله ، والتوكل على الله فلا سلطان للشيطان عليه ، لأن الشيطان إنما يأتيك والإيمان ينفيه [2].

---

(١) سورة الحجر : آية ٤٢ .

(٢) الكتاب نفسه : ١٢٤ ، ١٢٥ (بتصرف).

الفصل الثاني

حياة ابن عطاء الله السكندري .. وأثر إسقاط تدبيره

على الرغم من أن حياة الإمام زاخرة بالعلم والعمل ، وعلى الرغم أنه كان محدثاً بارعاً عن حياة كثير ممن تأثر بهم في مسيرته العلمية، والعملية، كالإمام أبو الحسن الشاذلي ، والمرسى (كما سيتضح) ، إلاّ أنه لم يتحدث عن نفسه ، وكأنه أيضاً لم يسمح لمعاصريه التحـــدث عنه ، وخاصة أن عصره كان من أزهى العصور العلمية، والمؤلفات التي تعد إلى يومنا أصولاً.

ولذلك نجد أكثر المترجمين تكلموا عن حياته في سطور لا تصف عظمته العلمية ، قال الدكتور التفتازاني في مقدمة حديثة عنه :

" ... بالإضافة إلى كل ما تقدم كنا نعمد إلى مختلف كتب التراجم مفتشين فيها عن تراجم أساتذته ، وتلاميذه ، ومعاصريه .

وقد وجدنا في ذلك صعوبة ومشقة ، وخاصة فيما يتعلق بتراجم أساتذته ، الذين تتلمذ عليهم في الفقه، وعلوم اللغة والحديث .

وقد اضطررنا في بعض الأحيان إلى قراءة مراجع بأكملها تلمساً لترجماتهم في ثنايا ترجمات علماء آخرين معاصرين لهم " [1] .

وهذا لا يدل إلا على عظم شخصيته ، وزهده ، واستقامة عمله، وخلاصه من شوائب النفس ، ورضاه بالله سبحانه وتعالى .

ومن ثـــم نجد تعجباً شديداً من مؤلفاته ، وخاصة حكمه التي أظهرت أدبه البارع ، وقوته التعبيرية الشعرية.

فقد حذا بها المكانة الأولي في تاريخ الأدب الصوفي العربي ، فهي تعد فحوى للعلوم ، دلّت بشروحها على أنها عظيمة من إيحاء وإلهام الله (سبحانه وتعالى) في تجليها تعالى عليه.

فهو الرجل الذي ففي لله تعالى ، فجند قلمه في الدعوة إلى الله تعالى ، بصدق واخلاص فقد جمع بين الشريعة، والعمل الذي صدر من القلب فصار حقيقة وجوهراً وروحاً للشريعة ، فكان أعجوبة النصف الأخير من القرن السابع وأوائل الثامن الهجريين ، وإلى يومنا هذا نستقي من علمه الغزير.

(١) انظر مؤلفه " لطـائف المـنن في مناقـب المهتدين ، وقدرة لسالكيـــن سيـــدي أبي العباس أحمد بن عمر الأنصاري المرسي وشيخه قطب الأقطاب .

اسمه ولقبه ونسبه :

هو أحمد بن محمد عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى ابن الحسين ابن عطاء الله .

لقبه : كان يلقب بتاج الدين ، وبأبي الفضل .

ونسبه : إن أصل أجداده من العرب الجذاميين ، الذين وفدوا على مصر بعد الفتح الإسلامـــي (قبيلة جذام) ، في خلافة سيدنـــا عمـــر ابـــن الخطاب (رضي الله عنه) ، واستوطنوا مدينة الإسكندرية .

وهو المالكي مذهباً ، لكن الإمام السبكى يرى أنه شافعي المذهب ، فقال :".. الشيخ تاج الدين أبو الفضل

من أهل الأسكندرية أراه كان شافعياً ، وقيل كان مالكياً .. " [1] .

نشأتـــه :

نشأ رحمه الله تعالى في أسرة صالحة وتقية ، ولها منزلة علمية كبيرة، وهذا ليس غريباً ؛ فقد دلّ رضي الله عنه بشخصيته الكريمة على قدرها العلمي والسلوكي فجده الأول (والد أبيه) أبو محمد عبد الكريم بن عطاء الله السكندري ، كان فقيهاً من كبار علماء عصره ، فقد كان حجة في الأصول ، ومرجعاً في اللغة .

واشتغل بالتدريس ، ونشر العلوم الدينية بين سكان ثغر الإسكندرية ، وغيرها من البلاد الذين وفدوا على مجلسه ، وحرصوا على تلقي العلوم منه ، حتى ذاع صيته في الأفاق .

أما والده فقد تحدث عنه أنه كان معاصراً للشيخ أبو الحسن الشاذلي ، وأنه كان على صلة طيبه به [2] .

وقد تحدث أيضاً عن جده أثناء حديثه عن شيخه المرسى :

" ... ودخلت أنا عليه فقال لي : إذا عوفي الفقيه ناصر الدين يجلسك فـــي موضـــع جدك ... وتتكلم إن شاء في العلمين (أي الفقه والتصوف) فكل ما أخبر بـــه رضـــي الله عنـــه"[3] .

وقد تحدث ابن فرحون المالكي في الديباج عن مكانة جده العلمية أنه:

" ... أبو محمد عبد الكريم بن عطاء الله الاسكندري ، كان إماماً في الفقه والأصـــول والعربية ، اختصر التهذيب اختصاراً حسناً ، واختصر

(١) تابع التالي :
بدائع الزهور في وقائع الدهور : ابن إياس : ط ، الحلبي ، ص ٤٢٤ (بتصرف) .
الديباج في المذهب : ابن فرحون المالكي : ط جـــ ١ المعارف ، ص ٢٤٢ .
شذرات الذهب : ابن عماد الحنبلـــي : ط الحلبي ، جـــ١ ، ص ١٩ .

(٢) لطائف المنن : ط الشعب ، ص ٨٩ .
(٣) لطائف المنن : ص ١٢٦ .

المفصل للزمخشرى ، وكان رفيقاً للشيخ أبي عمرو بن الحاجب في القراءة على الشيخ أبي الحسن الابيارى ، وتفقهاً عليه في المذهب ، وألف البيان والتقريب في شرح التهذيب ، وهو كتاب كبير جمع فيه علماً جماً ، وفوائد غزيرة ، وأقوالاً غريبة ، نحو سبع مجلدات ، ولم يكمله رحمه الله " [1] .

وعلى الرغم من قدر ابن عطاء الله السكندري في علم التصوف والعمل به وكذلك قدر حب والده لهذا العلم وطريقه ، إلّا أن جده كان كثير النقد له ولأهله ، فقد كان يشدد النكير على الصوفية ، ولعله كان فقيهاً متعصباً ، أو أنه لم يفهم هذا العلم على أصوله الشرعية وحكمه ، هذا بناءً على رؤيته لبعض ممن ينتسبون إلى الصوفية وهم علي بدع ومنكرات ، خارجة عن أصول هذا العلم ، وشرعيته الإسلامية .

وهكـــذا يتبين أن إمامنا نشأ في الإسكندرية طالباً علوم عصره الدينية من تفسير ، وحديث ، وفقه وأصول، ونحو وبيان ... وكل العلوم الإسلامية، على آئمة عصره ، فقد كان ذلك قبل عام ٦٧٤هـــ .

فقد كانت مدينة الإسكندرية مركزاً هاماً ، من المراكز العلمية بالقطر المصري وكان بها كثير من خيرة العلماء في الفقه،والتفسير ، والحديث، والأصول ، وسائر العلوم العربية والإسلامية .

من شيوخه :

ذكر ابن حجر العسقلاني :

الأبرقوهي ، فقد سمع منه الحديث ،وقرأ النحو على المازوني[2] .

وقد تحدث الإمام عن مكانة الأبرقوهي في كتابه لطائف المنن،فقال:

" وأعلم أن شأن الولاية والولي عظيم ، والخطب فيها جسيم ،

(١) الديباج في المذهب : جـــ ١ ، ص ٤٣ .

(٢) الدرر الكامنة : ابن حجر العسقلاني ط : دار المعارف ، جـــ ٤ ، ص ٢٩٢ .

ويكفيك في ذلك ما حدثنا به الشيخ الجليل شهاب الدين أبو المعالي أحمد بن اسحق بن محمد بن المؤيد الأبرقوهي رحمه الله تعالى ... " [1] .

وممن سمع الحديث منهم الإمام أبو محمد عبد المؤمن خلف بن أبي الحسن الدمياطي ، فقد قال إمامنا :

" .... وحديث الشافعية المشهور الذي أخبرنا به الشيخ الإمام الحافظ بغية المحدثين شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن بن خلف بن الحسن الدمياطي بقراءتي عليه أو قراءته علي ، وأنا أسمع... " [2] .

وقرأ النحو أيضاً على المحيى المازوني :

وذكر السيوطى عن مترلة المازوني وابن النحاس معدودين في مترلة واحدة إذ لقب كلاهما بشيخ الديار المصرية في عصره .

وقد أورد ابن شاكر في ترجمته لابن النحاس ما يفيد أن المازوني هذا كان مقيماً بالإسكندرية [3] .

تأثره بالمرسى (رضي الله عنه) :

لقد بدأ إمامنا الطور الأول من حياته متأثراً بفكر جده (رحمه الله تعالى) في خصومته للصوفية ، ينكر عليهم بعض من أفعالهم ، لكن بأدب المتعلم المؤمن ، وقد روي ذلك من اعتراضه على الإمام المرسى ، قائلاً : ".. وكنت أنا في أول الأمر من المنكرين ، وعليه من المعترضين ، لا لشيء سمعته منه ولا شيء صح نقله عنه ،حتى جرت بيني وبين بعض أصحابه مقاولة ، وذلك قبل صحبتي إياه .

وقلت لذلك الرجل : ليس إلاّ أهل العلم الظاهر ، وهؤلاء القوم

(١) لطائف المنن : ص ٣١ .

(٢) المرجع السابق : ص ٣١ .

(٣) بغية الدعاة في طبقات اللغويين والنحاه : السيوطي ، ط السعادة ١٣٢٦هـ ، ص ٦ .وفيات الوفيات : جـ٢ ، ص١٧٢ .

يدعون أموراً عظاماً ، وظاهر الشرع يأباها " [1] .

وعلى الرغم من اعتراضه قرر مقابلة المرسى ؛ لأنه كما قال : " أن صاحب الحق له أمارات لا يخفى شأنه، فأتيت إلى مجلسه ، فوجدته يتكلم في الإسلام الذي أمر الشارع به فقال:

الأول : إسلام ، والثاني : إيمان ، والثالث : إحسان .

وإن شئت قلت :الأول : عبادة ، والثاني عبودية ، والثالث : عبودة .

وإن شئت قلت :الأول : شريعة، والثاني : حقيقة ، والثالث : تحقق أو نحو ذلك .

فما زال يقول : وإن شئت قلت، وإن شئت قلت .... إلى أن بهر عقلي ، وعلمت أن الرجل إنما يغترف من فيض إلهي ، ومدد رباني ، فأذهب الله ما كان عندي [2] .

أي من اعتراض ، وقد تحدث عن حاله في تلك الليلة في تبدله ، فقد أتي بيته في تلك الليلة متغيراً ، ليس على عادته في اجتماعه بأهله ، حيث انفرد بنفسه متأملاً في قدرة الله (عز وجل) ناظراً إلى السماء ، وقد تحدث قائلاً :

" ... ثم أتيت تلك الليلة إلى المترل ، فلم أجد في شيء يقبل الاجتماع بالأهل على عادتي ، ووجدت معني غريباً لا أدرى ما هو ، فانفردت في مكان انظر إلى السماء ، وإلى كواكبها ، وما خلق الله فيها من عجائب قدرته ، فحملني ذلك علي العودة إليه مرة أخرى .

فأتيت إليه فاستؤذن على ، فلما دخلت عليه ، قام قائماً وتلقاني ببشاشة وإقبال ، حتى دهشت خجلاً ، واستصغرت نفسي أن أكون أهلاً لذلك ، فقال: أحبك الله كما أحببتني.

وإن من غزارة فقه الإمام ابن عطاء ، وحبه الشديد له تمسك

(١) لطائف المنن : ط الشعب ، ص ١٢٨ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٢٨ – ١٢٩ .

بمواصلة تحصيله ؛ لذلك خاف أن يطلب منه تركه ، ليكون بين يديه كيوم ولدته أمه ، كاشتراط بعض مشايخ الصوفية في تلك الحقبة الزمنية.

وقد مضي ذلك قائلاً :

" ... وكنت أنا سمعت الطلبة يقولون :

من يصحب المشايخ لا يجئ منه في العلم الظاهر شئ ، فشق على أن يفوتني هذا العلم ، وشق على أن تفوتني صحبة المشايخ (رضي الله عنهم) .

فأتيت إلى الشيخ .. ثم قال :

" نحن إذا صحبنا تاجراً ما نقول له أترك تجارتك وتعالى ، أو صاحب صنعة ما نقول له أترك صنعتك وتعالى، أو طالب علم ما نقول له اترك طلبك وتعالى . ولكن نقدر كل أحد فيما أقامه الله فيه ، وما قسم على أيدينا فهو واصل إليه [1] .

وقد استشهد بما كان عليه رسول الله ﷺ مع صحابته ليصحح هواجسه النفسية ، فقال :

" وقد صحب الصحابة رسول الله ﷺ فما قال لتاجر اترك تجارتك ، ولا لذي صنعة اترك صنعته ، بل أقرهم على أسبابهم ، وأمرهم بتقوى الله فيها " [2] .

وهذا يدل دلالة قوية من أول أمره الطريق السلوكي الصحيح للإمام المرسى ، وأيضاً اختياره ابن عطاء الله، فقد كانت نظرته صحيحة له .

ولذلك قال الإمام ابن عطاء عن صحبته :

" ... ولعمري لقد صحبت الشيخ اثني عشر عاما ، فما سمعت منه شيئاً ينكره ظاهر العلم ، من الذي كان ينقله عنه من يقصده بالأذى "[3].

(١) المرجع السابق : ص ١٢٥ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٢٥ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٢٥ .

ولكن عندما سلك طريقه القويم، وذاق حلاوة الفناء بالله أراد ابن عطاء الله أن يتجرد ، ويعيش فقط في هذا الطريق ، فيقص ذلك قائلاً :

" ..... ودخلت أنا عليه يوماً ، وفي نفسي ترك الأسباب والتجريد ، وترك الاشتغال بالعلم الظاهر ، قائلاً: إن الوصول لا يكون إلاّ على هذه الحالة .

فقال من غير أن أبدى له شيئاً : صحبني بقوص إنسان يقال له (ابن ناشئ) وكان مدرساً بها ، ونائب الحكم ، فذاق من هذا شيئاً على أيدينا، فقال:

يا سيدي أترك ما أنا فيه ، وأتفرغ لصحبتك ؟

فقلت له : ليس الشأن ذا ، ولكن أمكث فيما أقامك الله فيه ، وما قسم لك على أيدينا هو لك واصل " .

ثم قال : وهذا شأن الصديقين ، لا يخرجون من شئ حتى يكون الحق سبحانه هو الذي يتولى إخراجهم .

فخرجت من عنده ، وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبي ، وكأنما كانت ثوباً نزعته ، ورضيت عن الله فيما أقامني فيه " [1] .

ومن الجدير بالذكر أن وفاة ابن عطاء الله السكندري كانت في المدرسة المنصورية (كما سيأتي) ، وهو يعمل بالتدريس .

ولقد كان الإمام المرسى مع تلميذه كالطبيب مع المريض ، فقد عالج فيه من الأمراض الظاهرة والباطنة، أقص منها ، كما قال إمامنا:

" .... وكنت كثيراً ما يطرأ على الوسواس في الطهارة ، فبلغ ذلك الشيخ أبا الحسن ، فقال : بلغني أن بك وسواساً في الوضوء .

قلت نعم .

فقال رضي الله عنه : هذه الطائفة تلعب بالشيطان لا الشيطان يلعب بها .

(١) المرجع السابق : ص١٢٣ .

ثم مكثت أياماً ، ودخلت عليه ، فقال : ما حال هذا الوسواس؟ فقلت: على حاله .

فقال : إن كنت لا تترك هذه الوسوسة لا تعد تأتينا ، فشق علىّ وقطع الله الوسواس عني "[1]

وكان "رضي الله عنه" يعالج هذا المرض بذكر قوله تعالى : ﴿ سبحان الملك الخلاق إن يشأ يذهبكم ويأتي بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز﴾ .

وكان رحمه الله تعالى يعاني من هموم وأحزان دائمة في قلبه ، قبل أن يلتقي بالمرسى ، وعندما تعرف عليه اشتكى ذلك له ، فكان رده قوله :

"أحوال العبد أربعة لا خامس لها:

النعمة ، والبلية ، والطاعة ، والمعصية .

فإن كنت بالنعمة فمقتضى الحق منك الشكر

وإن كنت بالبلية فمقتضى الحق منك الصبر

وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود مننه عليك .

وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الإستغفار "[2] .

ثم قال :

فقمت من عنده وكأنما كانت الهموم والأحزان ثوباً نزعته ، ثم سألني بعد ذلك بمدة كيف حالك ؟

فقلت: أفتش على الهم فلا أجده.

فقال : الزم فو الله لئن لزمت لتكون مفتياً في المذهبين .

يريد مذهب أهل الشريعة : أهل العلم الظاهر ، ومذهب أهل الحقيقة أهل العلم الباطن [3] .

ويقصد بالعلم الباطن : كما يتبين العلم الذي يخص القلب ، وهو ثمرة العلم الكسبي الذي هو الظاهر كما وصفه .

---

(١) المرجع السابق : ص ١٢٧

(٢) المرجع السابق : ص١٢٩ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٢٨-١٢٩ .

بعض شهادات عصره له:

هكذا استمر مع شيخه إلى أن صار من خواص أصحابه في العلم والأدب ولما أتم تشربه ، وتذوقه لصحيح طريقه انتقل إلى القاهرة ؛ ليعمل في التدريس ، وكان لتذوقه حقيقة هذا العلم الأثر الكبير في غزارة علمه للفقه ، فقد كان عميق النظر وشديد الفراسة فيه .

ومن ثم أصبح له شهرة واسعة ، وقدر كبير في القاهرة ، والعالم الإسلامي ، ولذلك حذا حذواً كبيراً في شهادات علماء عصره له ، وإلي يومنا هذا ، فأذكر منهم :

قال ابن فرحون المالكي (المتوفى سنة ٧٩٩):

" ... كان جامعاً لأنواع العلوم من تفسير ، وحديث ، ونحو ، وأصول ، وفقه ... وغير ذلك ...

كان رحمه الله تعالى متكلماً على طريقة أهل التصوف ، ونافعاً انتفع به خلق كثير وسلكوا طريقه .

وكان أعجوبة زمانه في كلام التصوف ،وله نظم حسن الوعظ"[1].

قال السيوطى عنه :

" ... كان جامعاً لأنواع العلوم من تفسير ، وحديث، ونحو ، وأصول، وفقه على مذهب مالك ، وكان أعجوبة زمانه أخذ عنه التقي السبكى "[2] .

ومن قوله أيضاً :

" وكان الشيخ تاج الدين ابن عطاء يحضر مجلس وعظة الآئمة ، مثل الشيخ تقي الدين السبكي إمام وقته تفسيراً ، وحديثاً ، وفقهاً ، وكلاماً ، وأصولاً ومنقولاً ، بل المجتهد الذي لم يأت بعد مثله ، ولا قبله من دهر طويل "[3]

---

(١) الديباج في المذهب : ج ١ ، ص ٢٤٢.

(٢) حسن المحاضرة : السيوطي : ط الحلبي : جـ ١ ، ص ٢٤٢ .

(٣)المرجع السابق : جـ ١ ، ص ٢٤٢ .

وقال الإمام أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكى :

" كان أستاذ الشيخ الإمام الوالد في التصوف ، وكان إماماً عارفاً ، صاحب إشارات وكرامات ، وقدم راسخ في التصوف ، وصحب الشيخ أبا العباس المرسى ....واستوطن الشيخ تاج الدين القاهرة يعظ الناس ويرشدهم ، وله الكلمات البديعة دونها في كتب جمعوها من كلامه " [1]

وقال الذهبي عنه :

" كانت له جلاله عجيبة ، ووقع في النفوس ، ومشاركة في الفضائل ، ورأيت الشيخ تاج الدين الفاروق ، لما رجع من مصر معظماً لوعظه وإشارته ، وكان يتكلم بالجامع الأزهر فوق كرسي ، بكلام يروح النفوس ، مذج كلام القوم بآثار السلف وفنون العلم ، فكثر أتباعه عليه سيما الأخيار " [2] .

(١) طبقات الشافعية : ط دار المعرفة (بيروت) لبنان : جـ ٥ ، ص ١٧٦ .

(٢) الدرر الكامنة : ابن حجر العسقلاني : جـ١ ، ص ٢٩١ – ٢٩٢ .

شهادة ابن تيمية له :

من الشهادات الهامة شهادة ابن تيمية له ، علي الرغم من خلاف نهجهما السلوكي ، فقد جاء هذا الوصف في مناظرة علمية دارت بينهما ، كان ابن تيمية معترضاً على بعض أفعال الصوفية ، فمن قوله فى ذلك :

" .... أعرف أنك ما تعمدت إيذائي ، ولكنه الخلاف في الرأي..."

فرد عليه الإمام ابن عطاء الله قائلاً :

ماذا تعرف عني يا شيخ ابن تيمية؟

قال : أعرف عنك الورع ، وغزارة العلم ، وحدة الذهن ، وصدق القول ، وأشهد أني ما رأيت مثلك في مصر ، ولا في الشام حبا لله ، أو فناء فيه ، أو انصياعاً لأوامره ونواهيه ، ولكنه الخلاف في الرأي.... " [3] .

(٣) مناظرات ابن تيمية مع فقهاء عصره : د . السيد الجميلى : ط بيروت ، ص ١١ ، ١٢ .

وكانت هذه المناظرة بعد خروج ابن تيمية من السجن ، بسبب بعض آرائه ، وتعصبه لها .

وقد ذهب يصلي العشاء في جامع الأزهر خلف الإمام ابن عطاء الله ، الذي قيل عنه أنه من بين أسباب سجنه.

ومن بين تلاميذ ابن عطاء الشيخ داود بن عمر إبراهيم الشاذلي ، المعروف (بابن باخلا) .

والشيخ أبو العباس أحمد بن المليق السكندري الأصولي .

وفاته :

عاش ابن عطاء الله حياة زاخرة بالعلم والمعرفة ، والعمل والفناء من كل شئ والبقاء بالله تعالى في كل شئ، إلى أن توفي بالقاهرة ، وهو يعمل بالتدريس في المدرسة المنصورية ، التي بداخل المارستان الكبير ، التي بناها الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي (٦٧٨هـ – ٦٨٩هـ) ، وكانت بخط بين القصرين وهي بحي باب الشعرية ، على جانب شارع بورسعيد ، قريباً من مسجد عبد الوهاب الشعراني ، في اليوم الثالث عشر من شهر جمادى الآخر سنة ٧٠٩ ، الموافق ١٩ نوفمبر سنة ١٣٠٩ م [1] .

وكانت جنازته عظيمة ، اجتمع فيها خلق لا يحصون . ودفن في خلوته التي في سفح جبل المقطم .

ولم يعرف عمره على وجه الدقة؛ على رغم مكانته لم يعرف تاريخ مولده على وجه الدقة ، فقد ذكر الدكتور أبو الوفا التفتازاني أنه ولد تقريباً في حدود سنة ٦٥٨ هـ ، أي في النصف الثاني من القرن السابع الهجري [2] .

رأي ذلك من حيث إن صحبته للمرسى دامت اثنتي عشر عاماً تقريباً، وقد توفي المرسى سنة ٦٨٦ هـ .

(١) حسن المحاضرة: مرجع سابق ، ص ٤٢٤.

(٢) ابن عطاء الله السكندري وتصرفه أ . د أبو الوفا التفتازاني : ص ١٢١ .

ولكني أري أنه ولد قبل ذلك ، لأنه ترك شيخه ، وذهب إلى القاهرة ليعمل بالتدريس بجامع الأزهر ، وذلك في حياة شيخه ، وبعد صحبته التعليمية له ، وعلى العموم يكفى أن نعرف أنه توفى بعد حياة زاخرة بالعلم والإيمان والتقوى والورع ، كما قال الإمام السيوطى .

من مؤلفاته :

من مؤلفات ابن عطاء الله غير " التنوير في إسقاط التدبير " ما يأتى :

١- (الحكم العطائية) :

الحق أن الكلام عن وصف حكّم الإيمان ابن عطاء أكبر بكثير من عرضها هكذا من بين مؤلفاته ، فلست مبالغة إن قلت تحتاج إلى رسالة علمية لتحديد مكانتها على مر العصور منذ ظهورها بين الناس .

فهي فيوضات من الله (عز وجل) عليه ، وقد اشتهر بها ، وقد أطلق العلماء عليه أنه صاحب الحكم .

وقد اهتم الناس بها اهتماماً كبيراً، على اختلافهم ؛ من الصوفية بطريقهم والفقهاء والعلماء بمختلف علمهم ، حتى عوام الناس تأثروا بها كثيراً .

فالكثير من العلماء عكف على دراستها في المساجد ، ومنازل العلم في كثير من البلدان الإسلامية ، وخاصة في مصر ، وبلاد المغرب العربي ، وفي الأندلس ، ولازالت (الحكم العطائية) إلى يومنا هذا تدرس في المجالس العلمية والأدبية الخاصة وقد شرحت شروحاً كثيرة ، في أزمنة مختلفة ، وفي أقطار كثيرة ، وبلغات أجنبية أحياناً :كالتركية ، والمالوية .

فقد عشقها الكثير ، كما يقول حاجي خليفة :

أرباب الذوق لما رّق لهم من معانيها ، وراق ، وبسطوا القول فيها وشرحوها كثيراً [1] .

(١) كشف الظنون : حاجي خليفة ، ط المعارف التركية (١٣٦٠ هـ - ١٩٤١ م) ، المجلد ١ ، ص ٦٧٥.

ولذلك وصفها المستشرق الإنجليزي (آرثر جون أربرى) بأنها كتاب صغير جذاب وبليغ ، قد ظفرت بقبول غير عادى ، كما يشهد بذلك العدد الكبير من الشروح ، التي كتبت عليها [1] .

وقد قيل أن الحِكَم هي أول مصنفاته ، لإشاراته إليها ، واقتباس فقرات منها في كثير من مصنفاته الأخرى "كالتنوير في إسقاط التدبير".

" ولطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس ، وشيخه الشاذلي أبي الحسن ".

" وتاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس " و " عنوان التوفيق في آداب الطريق" .

وقد ذكر حاجي خليفة في " كشف الظنون " أنه لما صنفها عرضها على شيخه المرسى ، فقال له :

" يا بني لقد أتيت في هذه الكراسة بمقاصد الإحياء " [2] (للإمام الغزالي) .

وبناءً على ذلك ذكر أن الحِكَم ألفها قبل عام ٦٨٦ هـ ، وهو العام الذي توفي فيه المرسى .

وتعد الحِكَم من أبلغ النثر الأدبي، حوت على علوم وفنون أدبية ، من عظم نثرها أنها عبارة عن فقرات قصيرة ذات ألفاظ قصيرة ، فيها واقع سلوكي ، وخطاب موجه إلى السلوك القويم ، بسهولة ويسر ، وبحب تؤثر على قارئها بأحسن ما يمكن أن يسلكه من خير وصلاح .

وسوف أعرض الكثير منها في ثنايا الموضوع .

ومن ثم كثر شراحها من بينهم :

شرح محمد بن إبراهيم بن عباد النفرى الرندى (نسبة إلى رندة مدينة واقعة بجنوب الأندلس بين أشبيلية

(١) Arberry (A.J.) Supism London ١٩٥٠ . pp . ٨٧-٨٨.

(٢) كشف الظنون: المجلد الأول ، ص ٦٧٥.

ومالقة) المتوفى سنة ٧٩٢ هـ - ١٣٨٩ م من أهل الأندلس .

يسمي (غيث المواهب العلية) ، وذكره (بروكلمان) أنه يعد كتاباً مدرسياً في مذهب التصوف في جامع الزيتونه بتونس .

وقد طبع طبعات كثيرة منها : طبعة بولاق سنة ١٢٨٥ هـ .

وكذلك شرح شهاب الدين أحمد ابن محمد البرنس المعروف بزروق المتوفى سنة ٨٩٩هـ- ١٤٩٤م.

وطبع في القاهرة سنة ١٢٨٨ هـ - ١٢٨٩ هـ .

ومن عظيم أثرها على الشيخ زروق أنه شرحها كثيرا ، وفي مكتبة الأزهر نسختين خطيتين من شرحه ، يقال إنه السابع عشر من شروحه عليها ، رقم إحداها (١٠٦) ٦١٥٠ ، والأخرى (١٣١٤) بخيت ٤٤٨٠٩ .

والواقع أن الحِكَم ، وشروحها ، من الصعب جداً أن نحصرها . وقد ذكر منها الدكتور التفتازاني أربعة وعشرين شرحاً في كتابه [1] . وهذا لأن الحكم (كما سبق) منذ القرن السابع الهجري إلى العصر الحاضر ، وهى لها المنزلة الأولى في الاهتمام فى علم التصوف في مختلف الأقطار الإسلامية على وجه الخصوص مصر ، وبلاد المغرب العربي، وأسبانيا ، وتركيا، والجزيرة العربية ، والهند ، والملايو.

٢- المناجاة العطائية :

وتليها روعة المناجاة العطائية ، فهي من روائع الأدب الصوفي ، فقد تجلّى الله تعالي عليه في حالة ذوق الحب الإلهي ، وهي مناجاة لله عز وجل ، عبر فيها عن أروع وأدق أحواله .

فأذكر منها قوله :

" إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك ؟

(١) تابع : ابن عطاء الله : ص ٩٠ - ٩٧ .

أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك ؟

متي غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ؟

ومتي بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك " [1]

فقد كان ابن عطاء قوى الصلة بالله تعالى ، ورقيق المشاعر ، وأديب بارع فعبر عن ذوقه ، وحاله أجمل تعبير ، وأفصح عن مشاعره ، بأسلوب قوي معبر أثّر في سامعه ، وبسهولة ، ينقله إلى حالة وجدانية ، عالية التأثير في التقوى والخشوع .

وقد اشتهرت هذه المناجاة ، فقد كانت دائما تخرج مع الحكم في طبعه واحدة ، حتى قيل عنها أنها أغلب الظن ألفت مع الحكم ، لتشابه عبارتهما .

(١) شرح الرندى على الحكم : جـ ٢ ، ط عالم الفكر ، ص١١٥ .

٣- لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسى وشيخة الشاذلي :

ألف هذا الكتاب بعد كتاب التنوير تقريباً سنة ٦٩٨ هـ . وقد ألفه حينما شعر بأن من واجبه أن يحفظ مناقب المرسى وشيخه ، والكتاب له أهمية كبيرة ، فبالإضافة إلى أنه الفريد الذي يعطي تفصيلاً ما لحياة أعلام مشايخ الطريقة الشاذلية ، فقد عرفنا بمنهج عملي ، طريق الفناء بالله عز وجل ، الذي يؤسس على الشريعة الإسلامية .

وقد تناولت في البحث الكثير من موضوعاته .

٤- تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس:

الكتاب الثالث بعد التنوير ، ولطائف المنن ، فهو مؤلف منهما كما يقول ابن عجيبة [2] .

(٢) إيقاظ الهمم : جـ ١ ، ط دار المعارف ، ص ٩ .

وهو كتاب قيم تناول طريق جهاد النفس .

وقد تناولت في البحث كثير من موضوعاته كما سيأتي .

٥- مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح :

من أهم مؤلفات ابن عطاء الله في شرح طريق جهاد النفس ، من حيث الذكر وصفوه لله عز وجل ، والعزلة والخلوة ، قد عبر عن أدق أحوال النفس الإنسانية في حال سلوكها لله (عز وجل) ، فقد تضمن وفق منهج قيم فصولاً وأبواباً هامة ، ومن ثم قد تناولت منه كثيراً من موضوعاته كما سيأتي .

٦- القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد :(٢)

هو رسالة تضمنت مذهبه في الإلهيات . وهنا نجده متكلماً بارعاً ، تكلم بكلام قيم قوى الأسلوب والعبارة ، مستخدماً إصطلاحات الفلاسفة والمتكلمين في القدم ، والحدوث ، وأقسام الوجود ، وما يتعلق بالأعراض كالحركة والسكون والتغيرات ، كما استخدم فكرتي الواجب والممكن في إثبات بعض آرائه.

كما تحدث ببراعة عن المذهب الأشعرى فى مشكلة الذات والصفات.

وتظهر أهمية هذا الكتاب بالنسبة للمتخصص في هذا العلم ، أنه جمع فيه بين أذواقه الصوفية وسمو الأخلاق بها ، وعلي أذواق والأخلاق العقلية .

فقد عبر ببداهة عقلية ، وبفطرة نقية أن الأذواق المتعلقة بالمعرفة والعلوم هي نفس طريق المشاهدة القلبية .

ومن ثم تناولت صفات الله عز وجل وأسمائه ، وأفعاله وطريق معرفتها وما إلى ذلك .

(٢) هذا الكتاب طبعة (الحلبى) ، وهو قيم على رغم من صغره .

وأكتفي بهذا القدر من عرض مؤلفات ابن عطاء الله ، ويكفى أن نعرف أن ابن عطاء الله قد خلف عدداً كبيراً من المصنفات التي تختلف من حيث موضوعاتها والأغراض التي صنفت من أجلها ، وأنها قد حظيت باهتمام غير عادى ، وبانتشار واسع لأهميتها ، منذ القرن السابع الهجري إلى اليوم (كما سبق) .

الباب الثالث

قواعد إسقاط التدبير وأسسه

إن إسقاط التدبير ليس مقام بعينه بل جهاد أكبر للنفس ، وسلوك وحياة إيمانية كاملة .

ومن ثم يلزم على المريد للسلوك الإيماني الصحيح ، أن يكون مستقى سلوكه له المعرفة الصحيحة من الكتاب والسنة ، فربما يسلك المريد طريقاً يظن فيه أنه قد أسقط تدبيره ويركن إليه ، وقد يتعصب له من فرط ضلاله ، والواقع أن ذلك ضلالاً من جهله بالمعرفة الصحيحة .

وعلى ذلك فإن الواجب والفرض على المسلمين كافة المعرفة الصحيحة لهذا المنهج العظيم ، والأساس لنهجه من الكتاب والسنة الشريفة .

حيث إنه علاج نفسي من هموم وغموم الحياة الدنيا ، وكل مشاغل الحياة الدنيا التي تهم القلوب ، وتثقل الأجساد ، ولا حول ولا قوة للنفوس إلاّ بالله العلي العظيم .

ولذلك فالناس على مقامات ودرجات على حسب تسليمهم وسلوكهم وتمسكهم ، أو تركهم لهذا النهج .

ومن الجديـــر بالذكر أن للعقل نعمة جليلة وعظيمة في تهذيب وترتيب وتنظيم ، وتفويض وتسليم كل شئون الحياة . بشرط أن يكون ذلك كله على أساس العلم من الكتاب والسنة ، وينبغي للإنسان معرفة الأضرار الجسيمة بوبال التدبير ؛ وخطره على الإنسان في حياته ، وشئونها .

الفصل الأول
العلم والمعرفة والعمل بهما

مقدمه :

إن للعالم والعارف لله (عز وجل) قدر ومكانة كبرى في حياة المسلم لله (سبحانه) .

فالمسلم ليس اسماً ، أو كلمة فقط تطلق وتتوارث ، بل عتاد وجهاد وحياة كاملة ، ومن ثم فهي علم ومعرفة بالله (عز وجل) .

ونجد أن القرآن الكريم جعل للعالم منزلة كبيرة .

ومن ثم تفاوتت الناس على قدر علمهم ومعرفتهم لله عز وجل .

قال عز وجل : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١)

وقال عز وجل : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (٢)

كما قال عز وجل : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ (١)

(١) سورة الزمر : أية ٩ .

(٢) سورة المجادلة : أية ١١ .

وإن كل العلم يرجع إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله وحد لا شريك له الملك وله الحمد يحيى ويميت ، بيده كل شئ ، وبأمره كل شئ .

قال الله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ (٢)

هذه الآية الكريمة بجانب الآيات الأخرى ، توضح مدى فضل العلماء ، فقد شهد الله أنه واحد لا شريك له وثني بملائكته ، وثلث بأهل العلم . وهو الذي قال عز وجل عنهم ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٣) .

فقد جعل رسول الله ﷺ طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمه ، فقد قال ﷺ " طلب العلم فريضة على كل مسلم " (٤) .

وقال الله تعالى لسيد العارفين بالله عز وجل ﷺ : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (٥)

لذلك كان المسلمون الأوائل يحرصون على تلقى العلم ومذاكرته ، فقد كانوا يعبدون الله على بصيرة العلم والمعرفة ، وعلى علم يقينى ، وهذا من أسرار تفوقهم وقدرتهم الصالحة ، وقد مدحهم رسول الله ﷺ كثيراً فمن قوله ﷺ : أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم " (٦) .

فإن العلم نور يسير المريد على هداه ، وهذا النور لا يعرف ولا يكون إلاّ بالتبحر في علوم الدين ، كالفقه والتفسير ، والعمل بهما قلباً وقالباً .

(١) سورة العنكبوت : أية ٤٩ .

(٢) سورة آل عمران : أية ١٨ .

(٣) سورة فاطر : أية ٢٨ .

(٤) أخرجه ابن ماجة في سننه ١ /٨١ باب فصل العلماء الحث على طلب العلم (عن أنس بن مالك رضي الله عنه) ط الحلبي : سنة ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٢ م .

(٥) سورة طه : أية ١١٤ .

(٦) أخرجه ابن حجر العسقلاني في كتابه الكبير ٤/١٩٠ كتاب القضاء . باب آداب القضاة عن ابن حجر رضي الله عنه : ط الطباعة الفنية المتحدة ، القاهرة .

قال الإمام أحمد بن رزق شارح حكم الإمام ابن عطاء :

" صدق التوجه مشروط بكونه من حيث يرضاه الحق – تعالى – بما يرضاه ، ولا يصح مشروط بدون شرطه (ولا يرضى لعباده الكفر) .

فلزم تحقيق الإيمان (وإن تشكروا يرضه لكم) فلزم العمل بالإسلام .

فلا تصوف إلاّ بفقه ، إذ تعرف أحكام الفقه الظاهرة إلا منه .

ولا فقه إلا بتصوف ، إذ لا عمل إلا بصدق وتوجه ، ولا هما إلّا بإيمان.

إذ لا يصح واحد منهما دونه.

فلزم الجميع لتلازمهما في الحكم كتلازم الأرواح للأجساد ، ولا وجود لهما إلا فيها .

كما لا حياة لها إلا بها فافهم !

ومنه قول مالك (رحمه الله تعالى):

" من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ،ومن جمع بينهما فقد تحقق"[1].

(١) قواعد التصرف : أحمد بن رزق ، ط مكتبة الرازي ، ص ٤٤ .

وبناءً على ذلك نجد قول الإمام أحمد بن رزوق في إظهاره لأهمية العلم في حياه الزاهد والفاني :

" ولا يصلح العمل بالشيء إلا بعد معرفة حكمه ووجهه ، فقول القائل : لا أتعلم حتى أعمل ، كقوله : لا أتداوى حتى تذهب علتي ، فهو لا يتداوى ،ولا تذهب علته ، لكن العلم، ثم العمل،ثم الإجادة، وبالله التوفيق"[2].

الطريق الصحيح للعلم والمعرفة:

إن مكانه العالم عظيمة إذا التزم شروط العلم الصحيح وآدابه وأخلاقه.

فكلما كان هذا الطريق صحيحاً بشروطه ، كلما كانت مواهبه عديدة لا تنحصر بحصر ، فهو رزق من الله " عز وجل " وهبه وإيحاء وإلهام ، فربما يكون العالم في بداية التأهب للنوم ، وجسمه كله في إسترخاء كالميت ، ويأتيه رزق العلم ، (الإلهام به) ، فيقوم العالم مسرعاً ، ليكتب ما رزقه

(٢) المراجع السابق : قاعدة ٢٢ ، ص ١٣ .

الله به (عز وجل) وان ذلك يعرفه العلماء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، والذين هم على بصيرة المعرفة بالله عز وجل .

أهمية المعرفة .. وعلاقتها بإسقاط تدبير القلب :–

قال الهجويرى عن أهمية المعرفة:

" فالمعرفة هي حياة القلوب عن علام الغيوب ، وخلو السريرة عن كل ما سوى الله ، وقدر كل إنسان على حسب معرفته.

ومن كان على غير معرفة فليس بشيء يذكر ....."[1]

وقال لسان الدين الخطيب:

" المعرفة في اللغة : العلم ، وقال في حد العلم : معرفة المعلوم على ما هو عليه.

فكل علم معرفة ، وكل معرفة علم ، وكل عالم بالله عارف ، وكل عارف بالله عالم (ذكره القشيرى)

إلا أن المعرفة تتعدى إلى الله بنفس لفظها ، بخلاف العلم .

قال بعضهم في قوله تعالى :

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ما عرفوه حق معرفته .

جاء في الحديث عن عائشة (رضى الله عنها) أن رسول الله ﷺ قال : " إن دعامة الدين المعرفة بالله ، واليقين والعقل النافع ، فقلت يا رسول الله : بأبي أنت وأمي : ما العقل النافع ؟

فقال : الكف عن معاصي الله ، والحرص على طاعة الله ... وهذا من تعريف الشيء بغايته "[2].

(١) كشف المحبوب : ألفه بالفارسية (أبو الحسن على الهجوري) : ترجمة عن الإنجليزية الكاتب الصوفي / محمود أحمد ماضي أبو العزائم الشاذلي : ط دار التراث العربي ، ص ٣١٨ .

(٢) روضة التعريف بالحب الشريف : لسان الدين الخطيب : تحقيق : عبد القادر أحمد عطا : ط دار الفكر العربي ، ص : ٤١٧–٤١٨ .

ومن ثم نجد أن تعبير الجنيد عن المعرفة قوله :

المعرفـــة .. صفة من عرف الحق بأسمائه وصفاته ، ثم صدق الله في معاملاته ، ثم تنفى عن أخلاقه الرديئة ، وآفاته ، ثم طال بالباب وقوفه ، ودام القلب اعتكافه ، فحظي من الله بجميل إقباله ، وصدق الله في جميع أحواله ، وقطع عنه هواجس نفسه ، ولم يضع بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره . فإذا صار عن الخلق أجنبيا ، ومن آفات نفسه بريئا ، ومن المساكنات والملاحظات نقياً .

وداوم في السر مع الله مناجاته ، وحقق في كل لحظة إليه رجوعه .

وصار محدثا من قبل الحق بتعريف أسراره ، مما يحويه من تصاريف أقداره، فسمى عند ذلك عارفا ، وتسمى حالته معرفة [1] .

وكذلك قال هذا الفرق الإمام أحمد بن عجيبة الحسيني شارح الحكم ، قائلا :

" الفرق بين العالم والعارف :

أن العالم : دون ما يقول .

والعارف : فوق ما يقول .

والعالم : يصف الطريق بالنعت .

والعارف : يصفها بالعين ؛ لأنه سار معها ، وعرفها.

والعالم : إنما نعت له فقط .

العالم محجوب . والعارف : محبوب ..

العالم :من أهل اليمين . والعارف: من المقربين .

العالم : من أهل البرهان .

والعارف : من أهل الأعيان ..

العالم :من أهل الفرق . والعارف: من أهل الجمع ..

العالم : من أهل قولة تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ . والعـــارف : من أهل قولـــه تعـــالى :﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[2]

(١) المرجع السابق : ٤١٨ .

(٢) الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية : الإمام ابن عجيبة الحسيني ، ص ٣٢٢ – ٣٢٣ .

وهنا يتضح أن العارف هو الذي يجعل الله عز وجل في حركاته وسكناته ، ومن ثم فهو مسقط تدبير قلبه في تدبير الله عز وجل له .

كما فرق أيضاً بين العالم والعارف:

" العالم يدلك على العمل .

والعارف يخرجك عن شهود العمل ..

العالم يحملك حمل التكليف .

والعارف يروحك بشهود التعريف....

العالم يدلك على محافظة الصلوات

والعارف يدلك على ذكر الله من الأنفاس واللحظات ..

العالم يدلك على الأسباب .

والعارف يدلك على مسبب الأسباب..

العالم يدلك على شهود الوسائط

. والعارف يدلك على محرك الوسائط..

العالم يحذرك من الوقوف مع الأغيار . والعارف يحذرك من الوقوف مع الأنوار فيزج بك في حضرة الجبار...

العالم يحذرك من الشرك الجلي .

والعارف يخلصك من الشرك الخفي ..

العالم يعرفك بأحكام الله .

والعارف يعرفك بذات الله .

العالم يدلك على العمل لله .

والعارف يدلك على العمل بالله .

العالم يدلك على العمل خوفاً وطمعاً . والعـــارف يدلك على العمل محبة وشكراً " [1] .

فإن العالم بمقدار أجنبيته عن نفسه، ينتقل من مرتبة العالم إلى المعرفة، عندما يعرف الله عز وجل بعين اليقين والعمل ، ويجاهد نفسه في تحرى الحلال .

قال ذو النون :

" حقيقة المعرفة إطلاق الحق على الأسرار بمواصلة لطائف الأنوار "[2]

ولذلك نجد قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾

إن الخشية مرتبة فوق الخوف ، لكثرة العلم اليقيني بالله عز وجل ، أو

(١) المرجع السابق : ص ٣٢٣ .

(٢) روضة التعريف بالحب الشريف : لسان الدين الخطيب ، ص ٤١٨ .

هو الذي يفوق العمل به ، ومن ثم تكون قوية وشديدة على العالم ، أحوالها كثيرة على العالم على حسب درجة عمله ومعرفته بالله عز وجل ، تظهر وتخفو وتقوى وتضعف .

وربما كانت هي والرجاء كجناحا الطائر في التساوي ، وغالباً إذا ضعفت نفس العالم زاد الخوف على الرجاء .

وإن الخوف من اضطراب النفس، وضعف العمل ،وقوة العلم.

وعلى ذلك إن كلمة العارف لا تطلق على العالم إلّا إذا جاهد نفسه ، وترقى في مقامات اليقين ، وتهذيب النفس : من التوبة .. إلى العبودية الخالصة لله عز وجل ، وأصبح كله لله عز وجل : عندئذ يسمى عارفاً بالله .

لذلك فإن لفظ العلم من الممكن أن يطلق على أي علم صحيح من عالم بخلاف لفظ العارف .

فكل عارف عالم ، وليس كل عالم عارف .

وعلى ذلك عرف الإمام أحمد بن عجيبة العارف فقال :

وحقيقة العارف هو :

الذي فني عن نفسه ، وبقي بربه، وكمل غناه في قلبه ، لا يحجبه جمعه عن فرقه . ولا فرق عن جمعه .

يعطى كل ذي حق حقه ، ويوفى كل ذي قسط قسطه ، والله تعالى أعلم بغيبه [1] .

لأن حقيقة العلم بالخير السكون فيه ، والعمل به ، عندئذ تطمئن نفس العالم .

وحقيقة العلم بالشر الخروج عنه، وإن إلتفات النفس له ، فقط بالقلب ، ولو كان التفاتا قليلاً ، يسبب لنفس العالم قلقاً واضطراباً وخوفاً وخشية ولا يهدأ إلّا إذا استقام قلبه.

ومن ثم قيل عن حقيقة المعرفة :

" ما قطعتك من غير الله ، وردتك إلى الله ، وأنها إستغناء العارف بوصف معروفه عن كل شئ سواه ،

(١) الفتوحات الإلهيه في شرح المباحث الأصلية ، أحمد بن عجيبة ، ص ٣٢٣ .

وهو محل الغنى بالله عن كل شئ دون مولاه [1]

ولذلك عرف علم اليقين :

العلم الذي لا يزاحمه وهم ، ولا يخالطه ريب ، ولا يصحبه اضطراب . مشتق من يقن الماء إذا حبس ولم يجر.

شبه به إذا صحبته الطمأنينة ، ولم تبق للقلب فيه تحرك ، ولا اضطراب وإشراق نوره ، وهو ظهور أثره على الجوارح ، فيظهر فيها الزهد في الدنيا . والرغبة في الآخرة .

ويظهر منه الإنحياش إلى الله والاشتياق على حضرة جماله ، والسكون والخضوع تحت قهر جلاله والمسارعة إلى ابتغاء مرضاته ، ولهج اللسان بذكره ، وشغل القلب بالفكرة في عظمته وهيمان الروح في حضرة قربة [2] .

ومن ثم فإن العلم الصحيح ، اليقيني ، تطمئن النفس به ، ويسكن القلب ، ويظهر ذلك على الجوارح بالعزوف عن كل ما هو فان ، ويهلج اللسان بذكر الله تعالى ، والسكون والخضوع تحت قهر جلال الله عز وجل . وبذلك يصير العالم بهذا العلم ، والعمل عارفاً بالله عز وجل .

ومن الجدير بالذكر أن طريق إسقاط التدبير العلم والعمل به ، وإن إسقاط التدبير بمفهومه الصحيح هو معرفة بالله عز وجل على وجهها الصحيح .

العلم المتلقي وخير العلوم :

ما أكثر العلماء وطلاب العلم ، وخاصة في هذا العصر المادي ، الذي انتشر فيه تيارات جارفة عاتية ، وعولمة باسم العلم ، كالأرض الجرداء التي لا يصلح فيها زرع ولا ماء ؛ فقد فصلوا العلم عن غايته الصحيحة ، ومقصوده في الحياة الدنيا والآخرة.

(١) المفاخر العلية: ابن عياد ، ط الحلبي ، ص ٩٨.

(٢) إيقاظ الهمم في شرح الحكم : ابن عجيبة ، ص ٢٥٠-٢٥١ .

قال رسول الله ﷺ :

" العلم علمان : علم في القلب فذاك العلم النافع ، وعلم على اللسان فذلك حجة الله على ابن أدم"[1]

ومن ثم فإن المقصود تلقى العلم النافع المؤثر على القلوب بتصفيتها عن الشكوك والأوهام ، والمؤثر أيضاً على الجوارح بالأعمال الصالحة الخالية من رؤية النفس فيها .

وقد عرف الإمام ابن عطاء الله العلم النافع قائلاً :

هو الذي ينبسط في الصدر شعاعه ، وينكشف عن القلب قناعه (أي غطاءه وغشاوته) فتزول عنه الشكوك والأوهام [2] .

---

(١) أخرجه الترمذي : الترغيب والترهيب : كتاب العلم : باب العلم علمان : رواه الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخه : بإسناد حسن .

(٢) شرح الشيخ عبد الله الشرقاوى على حكم الإمام ابن عطاء الله : هامش كتاب شرح ابن عباد على الحكم ، ط الحلبي ، سنة ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م ، جـ ٢ ، ص ٢٠ .

يرى ابن عطاء الله منبهاً ومعرفاً لأهمية العلم والعمل به :إن تكرار العلم في الكتاب العزيز ، أو السنة إنما المراد به :

العلم النافع الذي تقارنه الخشية ، وتكتنفه المخافة قال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[3].

فبين أن الخشية تلازم العلم ، وفهم من هذا : أن العلماء إنما هم أهل الخشية ومن ثم قال ﷺ: "العلماء ورثة الأنبياء " [4] .

والمراد بالعلم في هذا الموطن :

العلم النافع القاهر للهوى القامع، وذلك متعين بالضرورة .

والعلم النافع :

هو الذي يستعان به على طاعة الله تعالى ، ويلزمه المخافة من الله تعالى والوقوف على حدود الله ، وهو علم المعرفة بالله .

---

(٣) سورة فاطر : أية ٢٨ .

(٤) الحديث رواه أبو داود ، الترمذى وغيرهما.

ويشمل العلم النافع :العلم بالله عز وجل ، والعلم بما به أمر الله إذا كان تعلمه بالله .

ولذلك فإن علم اللسان :

إنما هو شئ قد استودع الحفظ ، والشهوة غالبة عليه ، وقد أحاطت به وأذهبت بظلمتها ضوءه .

فكثير ، أو ربما تترك غاية العلم الصحيحة ، ويقصد به شهوات النفس ووصولها إلى غايتها ، ويتولى هؤلاء العلماء الشيطان ، ويزين لهم سوء نفوسهم ويحليها ، وقد حذر الله عز وجل الإنسان من موالاة الشيطان في كثير من آياته الكريمة قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [1] .

ولذلك نجد من القول القيم المعبر عن حقيقة غاية العلم وهدفه ، قول الإمام أحمد بن رزوق : " طلب الشيء من وجهه ، وقصده من مظانه أقرب لتحصيله ، وقد ثبت أن دقائق علوم الصوفية منح الهية ومواهب اختصاصيه لا تنال بمعتاد الطلب فلزم مراعاة وجه ذلك ، وهو ثلاثة :

أولها : العمل بما علم ، قدر الاستطاعة .

الثاني : اللجوء إلى الله في الفتح على قدر الهمه ..

الثالث : إطلاق النظر في المعاني حال الرجوع لأصل السنة ، ليجرى الفهم وينتقى الخطأ، وتيسر الفتح[2].

وإن العلم النافع هو المنجى من عذاب الآخرة : هو علم الشريعة والحقيقة ، والعمل بهما.

وأن العلم دون عمل أمر من الجهل به ، وإن كان الجهل ظلام ، ولذلك إن من شرائط أهل الولاية أن يكون المريد عالماً بالأوامر الشرعية ،

---

(١) سورة فاطر : أية ٦ .

(٢) قواعد التصوف : الإمام أحمد بن زورق : قاعدة ٢٣ ، ص ١٣-١٤ .

وسالكاً فيها قلباً وقالباً حتى يتم له السلوك في الطريق المستقيم .

وإن منشأ الخطأ في القول أو الفعل ، أو الحكم في المتصرف من علماء الشريعة جهله بأصول دينه وفروعه ، حيث ترك العلم ومتابعته ، وهذه ظلمة كبيرة يعيش فيها هؤلاء .

وإن أشد أنواع الظلمات ظلمة القلب مع علم العقل بالشرع . ومن ثم فإن العلم النافع هو المنجى من عذاب الآخرة ، الذي يجمع القلب والقالب .

وكذلك فإن نفع العلم لا يكون إلاّ بربطه قواعده وأسسه الصحيحة .

قال الإمام بن زروق :

" .... لابد من ربط العلم بقواعده وأسسه حتى يكون نافعاً ، بضبط مسائله وتفهم معانيه وتدرك مبانيه ، وتنفي الغلط من دعواه ، وتهدى المتبصر فيه ، ويعين المتذكر عليه ، وتقيم حجة المناظر ، وتوضح المحجة للناظر ، وتبين الحق لأهله والباطل في محله " [1] .

درجات الناس في تلقي العلم :

يرى الإمام أحمد بن زروق أن الناس في حياتهم المعرفية درجات هم:

١- إما على التقليد :

وهو أخذ القول من غير استناد لعلامة في القائل ، ولا وجه في المقول. فهو مذموم مطلقاً ، وذلك لاستهزاء صاحبه بدينه .

٢- وإما على الاقتداء :

وهو الإسناد في أخذ القول لديانة صاحبه وعلمه ، وهذه رتبة أصحاب المذاهب مع أئمتها ، فيإطلاق التقليد عليه مجاز .

٣- وإما على التبصر :

وهو أخذ القول بدليله الخاص به ، من غير استبداد بالنظر ، ولا إهمال

(١) قواعد التصوف : أحمد بن زروق : قاعدة ٣٦ ، ص ٢١ .

القول وهي مرتبة مشايخ المذهب وأجاويد طلبة العلم .

٤- وإما على الاجتهاد :

وهو اقتراح الأحكام من أدلتها، دون مبالاة بقائل [1] .

وهنا يشير الإمام إلى أهمية التبصر في أخذ القول القيم الصالح بدليله الخاص به ، من غير استبداد بالنظر ، والأدب في الاجتهاد .

هذا أحرى في العلم النافع ، والاقتداء بخير العلماء ، وخير العلم ، ولذلك قال فتح الله بن الشيخ أبي بكر البناني :

"مدار الطريق على غاية التحقيق، وغاية التحقيق : هو وجود الآداب على منهاج التوفيق .

وبالأدب يحصل العلم ، وبالعلم يحصل العمل ، وبالعمل يحصل الزهد وبالزهد تحصل الحكمة ، وبالحكمة تحصل مخافة الله ، وبالخوف تحصل منازل القرب في الدنيا والآخره [2] "

الحكمة من خلق الجن والإنس :

يرى ابن عطاء الله أن سر الخلق والإيجاد إعلام للعباد ، وتنبه : لماذا خلقوا ؟

كي لا يجهلوا مراد الله تعالى فيهم ، فيضلوا عن سبيل الهداية ويهملوا وجود الرعاية [3] .

قال تعالى :﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [٥٦] مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ [٥٧] إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [4] .

فبين تعالى أنه إنما خلق هذين الجنسين لعبادته ، أي ليأمرهم بها ؛ وبناء على ذلك عرف الفقيه قائلاً:

(١) قواعد التصوف : ص ٢٣-٢٤ (بتصرف) .

(٢) عقد الدرر واللآلئ : في بناء فضل الفقر والفقراء : الشيخ فتح الله بن أبي بكر البنانى : ط الجمالية (مصر) : ط أولى سنة ١٣٣٠ هـ ، ص ٦٧ .

(٣) الكتاب نفسه : ص ٣٦٢ .

(٤) سورة الذاريات : أية ٥٦ – ٥٨ .

" من فهم سر الإيجاد فعمل له ، وهذا الفقه الحقيقي الذي من أعطيه ، فقد أعطي المنة العظيم ."

وفيه قال مالك [1] رحمة الله :

" ليس الفقه بكثرة الرواية ، وإنما الفقه نور يضعه الله في القلب....."

" فمن فقه سر الإيجاد بأنه ما أوجده إلاّ لطاعته ، وما خلقه إلاّ لخدمته ، كان هذا الفقه منه سبباً لزهده في الدنيا، وإقباله على الأخرى، وإهماله لحظوظ نفسه وإشتغاله بحقوق سيده ، مفكراً في المعاد : قائماً بالاستعداد ، حتى قال بعضهم : لو قيل لي غدا تموت لم أجد مستزادا [2]."

ثم قال الإمام ابن عطاء الله :

" .... إن لله عباداً أشغلهم عن كل شئ ، ولم يشغلهم عنه شئ ، أذهل عقولهم عظمته ، وأدهش نفوسهم هيبته ، فاستقر في أسرارهم وده ومحبته جعلنا الله منهم ، ولا أخرجنا عنهم"[3]

وفي نقاط أرى التالي :

أولاً : إن إكتساب العلم في بداية الطريق الصحيح لجهاد النفس ، هو لإسقاط التدبير : دواء وشفاء من العلل الظاهرة ؛ لذلك فهو بداية صحيحة لشفاء وإصلاح علل وأمراض القلب ، وعوائقه ، وعلائقه .

ثانياً : إن التمكن من شفاء العلل الظاهرة يؤدى إلى اليقين من التخلص من هموم القلب الفتاكة بالإنسان ، وهى مستعصية إذا تمكنت منه ، لكن بهذا الطريق الصحيح بسهولة ويسر يقطع الإنسان دابر

(١) ولد رضي الله عنه سنة ثلاث وتسعين من الهجرة ، قيل أنه أخذ العلم من تسعمائة شيخ منهم ثلثمائة من التابعين ، توفي سنة تسع وسبعون ومائة ، ودفن بالبقيع رضي الله عنه (انظر الطبقات الكبرى – الشعرائي) جـ ١ ، ص ٩٣ .

(٢) الكتاب نفسه : ص ٢٦٢ – ٢٦٥ .

(٣) الكتاب نفسه : ص ٢٦٦ –٢٦٣ .

وجودها . وذلك لأنه بدأ من المدخل الرئيسى لوجود هذا المرض الفتاك ، فقد أتى البيت من بابه ، ونوى التخلص منه ، ثم أراد ، ثم ابتدأ بالعلم والعمل معاً ، فقد حصل على العلم المطلوب لهدايته وشفاءه بشروطه وقواعده وأسبابه.

ولذلك نجد قول الإمام الجليل أبو الحسن الشاذلي يقول :

" إذا أردت السلامة من الغرض، فأخلص العمل بشرط العلم ، ولا ترضى عن نفسك بشيء ..

قوى نفسك بالعلم والمعرفة والإقتداء بالكتاب والسنة ..

لا كبيرة عندنا أكبر من اثنتين .

حب الدنيا بالإيثار (أي على الأخرى) والمقام على الجهل بالرضا ؛ لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والمقام على الجهل أصل كل معصية[1].

(١) درة الأسرار ابن الصباغ : تحقيق عبد القادر أحمد عطا : ط السعادة : ص ٥٥ .

الفصل الثاني
نعمة العقل والتدبير الممدوح

مقدمة :

لقد خص الشارع الحكيم للعقل منزلة رفيعة ، ففضل به الإنسان على سائر المخلوقات ، وهو قوة باطنة ، وغريزة أودعها الله عز وجل في الإنسان للتمييز والإدراك .

قال تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ (١)

وعليه التعويل والأمانة التي خص الله تعالى بها الإنسان في الدنيا .

فالعقل هو : الحجر ، والنهى ، وهو ضد الحمق ، والجمع عقول ، وقيل العاقل الذي يحبس نفسه ، ويردُها عن هواها .

والمعقول ما تعقله بعقلك .

والتعقل التثبت في الأمور ، وقيل العقل القلب ، والقلب العقل .. وسمي

(١) سورة الروم : أية ٨ .

العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك ، أي يحبسه (١) .

ومن ثم قال الإمام الحارث بن أسد المحاسبي :

العقل : غريزة وضعها الله (سبحانه وتعالى) في أكثر خلقه ، لم يطلع عليها العباد بعضهم من بعض ، ولا اطلعوا عليها من أنفسهم برؤية ، ولا بحس ، ولا ذوق ولا طعم .

وإنما عرفهم الله تعالى إياه بالعقل منهم فبذلك العقل عرفوه ، وشهدوا عليه بالعقل الذي عرفوا به من أنفسهم، بمعرفة ما ينفعهم ، ومعرفة ما يضرهم.

فالعقل غريزة ، جعلها الله (عز وجل) في عباده ، أقام به على البالغين للحلم الحجة ، وأنه خاطبهم من جهة عقولهم ، ووعد وتوعد وأمر ونهى ، وخصّ وندب ، لا يعرف إلاّ بفعاله في القلب والجوارح .

(١) لسان العرب : مجلد ١٣ ، جـ ١٣ ، ص ٤٨٥ ، ٤٨٦ (بتصرف) .

قال تعالى : ﴿ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

والعقل أيضاً : البصيرة ، وهو المعرفة بقدر الأشياء النافعة ، والضارة في الدنيا والآخرة ، ومنه العقل عن الله تعالى (٣) .

ولذلك قال الإمام الغزالي :

"إن العلوم هي ثمرة تلك الغريزة، وكأنها مضمنة في تلك الغريزة بالفطرة، ولكن تظهر في الوجود إذا جرى سبب يخرجها إلى الوجود ، وكأنها كانت مستكنة فظهرت ، ومثاله الماء في الأرض ، فإنه يظهر البئر ، ويجتمع بالحس ، لا بأن ساق إليها شيء جديد .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ

(٢) سورة البقرة : أية ٧٥ .

(٣) شرف العقل وماهيته : الحارث بن أسد المحاسبي : تحقيق مصطفي عبد القادر عطاء ط دار الكتب العلمية (بيروت – لبنان) ط الأولي سنة ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦ م ، ص ١٧-١٤.

﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ (١) .

فالمراد به : إقرار نفوسهم ، لا إقرار الألسنة ، حيث اختلفت الألسنة والأشخاص إلى مقر ، وإلى جاحد .

وقال الله تعالى : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (٢) .

فكل آدمي فطر على الإيمان بالله (عز وجل) ، بل على معرفة الأشياء على ما هي عليه .

ثم لما كان الإيمان مركوزاً في النفوس بالفطرة ،انقسم الناس قسمين: إلى من أعرض فنسي ، وهم الكفار .

وإلى من أجال خاطره ، فتذكر فكان كمن حمل شهادة فنسيها بعقلة ، ثم تذكرها ؛ ولذلك قال الله عز وجل: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (٤) .

(١) سورة الأعراف : أية ١٧٢ .

(٢) سورة الروم : آية ٣٠ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٢١ .

(٤) سورة ص : آية ٢٩ . تابع شرف العقل وماهيته : ص ٦٠ – ٦٣ (بتصرف) .

وقد أحسن العقاد (يرحمه الله تعالى) حين عرف مفهوم العقل قائلا: العقل في مدلول لفظه العام :

ملكة يناط بها الوازع الأخلاقي، أو المنع عن المحظور والمنكر ، ومن هنا كان اشتقاقه من مادة (عقل) التي يؤخذ منها العقال .

ومن خصائص العقل أنه ملكة الإدراك التي يناط بها الفهم والتصور، وهي على كونها لازمة لإدراك الوازع الأخلاقي ، وإدراك أسبابه وعواقبه .

ومن خصائص العقل أنه يتأمل فيما يدركه ، ويقلبه على وجهه ، ويستخرج منه بواطنه ، وأسراره ، ويبنى عليها نتائجه وأحكامه .

وهذه الخصائص في جملتها تجمعها ملكة " الحكم "وتتصل بها ملكة العلم، وتتصل كذلك بالعقل الوازع ، إذا انتهت حكمة الحكيم به إلى العلم بما يحسن ، وما يقبح ، وما ينبغي له أن يطلبه،وما ينبغي له أن يأباه .

ويرى العقاد أن أعلى خصائص العقل الإنساني " الرشد "، وهو مقابل لتمام التكوين في العاقل الرشيد . لأنها استيفاء لجميع هذه الوظائف وعليها مزيد من النضج ، والتمام والتمييز (١).

مفهوم التدبير :

ومن ثم فإن التدبير (كما سيتبين) من العقل إما أن يكون نعمة ، وأما أن يكون نقمة وبلاء على الإنسان ، لأن التدبير بمفهومه العام : هو النظر في عواقب الأمور (٢)

وهو قريب من الفكر ، إلاّ أن التفكر تصرف القلب عن النظر والدليل ، والتدبير تصرفه بالنظر في العواقب (٣) .

(١) التفكير فريضة إسلامية : الأستاذ عباس محمود العقاد : ط دار نهضة مصر ، ص ٤ (بتصرف) .

(٢) المصباح المنير : الفيومي : ط دار المعارف ١٩٧٧ م ، ص ٢٨٠ (بتصرف) .

(٣) التعريفات : الجرجاني : ص ٥٦ .

وقد عرفه الإمام ابن عجيبة وهو شارح حكم ابن عطاء الله :

أنه تقدير شئون يكون عليها في المستقبل بما يخاف . أو يرجى بالحكم لا بالتفويض ، فإن كان مع تفويض وهو أخروي ففيه خير ، أو طبيعي فشهوة ، أو دنيوي فأمنيه (٤) .

إسقاط التدبير،ومذهب الجبر :

قبل أن يأخذ بي الحديث في بيان تنوير ابن عطاء الله في إسقاط التدبير ، لابد من توضيح مذهب الجبر ، لكي يتبين نفيه تماماً عن مفهوم إسقاط التدبير عند ابن عطاء السكندري ، يوضح الكلام الآتي :

١– إن مذهب الجبر سلبية ، وتواكل ، ونفى لإرادة الإنسان واختياره . أما إسقاط التدبير الواضح عند هذا العارف الجليل هو العمل الصحيح ، الذي يركز على القلب

(٤) إيقاظ الهمم في شرح الحكم : الإمام ابن عجيبة : ص ٢٠ .

كأساس في صلاح الجسد ، وحياة الإنسان كلها ، قال ﷺ : (آلا وأن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهو القلب) .

٢- إن الجبر والاختيار ، أو الاختيار والجبر من المسائل الخطيرة التي حظرنا رسول الله ﷺ الجدال فيها منذ ظهور الإسلام ، لأنها مسألة إيمانية متعلقة بالإيمان بالقضاء والقدر؛ تخص بصيرة القلب ولا تفهم باستقلال العقول .

ولذلك روى عن عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده قال :

خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم ، وهم يتراجعون في القدر فخرج مغضباً ، حتى وقف عليهم ، فقال " يا قوم أبهذا أمرتم ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض، إن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن مصدقاً بعضه بعضاً ، ما عرفتم فاعملوا به ، وما تشابه فآمنوا به [1].

وكثير من الروايات عن رسول الله ﷺ التي تحذر من خطورة الجدال في هذه المسألة دون بصيرة الإيمان .

٣- وقد التزم المسلمون الأوائل بذلك النهى إلى أن ظهرت الفتن بين بعض المسلمين والخلاف حول الإمامة، منذ ذلك الحين ظهرت بعض الفرق الكلامية .

فقد وجد من بينهم من قرر أن الإنسان مجبور في أفعاله ، وأقواله ، وكان على رأس هذا الفريق (الجهم بن صفوان) . فقد نفي الإختيار عن الإنسان نفياً تاماً .

وعلى نقيض ذلك ظهر من قرر أن الإنسان له إرادة ، وحرية تامة ،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب العلم ، بال النهي عن اتباع متشابه القرآن ، جـ ٤ ، ص ٢٠٥٣ (عن عبد الله بن عمر) .

وأن ذلك بقوة مودعة في نفس الإنسان ، خلقها الله سبحانه وتعالى ، على رأس هؤلاء (غيلان الدمشقي) ، ومن فكرهم أيضاً ظهرت المعتزلة ، الذين حملوا لواء مذهبه بعد ذلك .

وبعد ذلك ظهرت الأشاعرة بمنهج الوسط بين الجبر والاختيار ، فقد قرروا في مذهبهم أن الله تعالى يخلق الأشياء كلها ، ولكن للإنسان كسب .

فالفعل فعل الله عز وجل . والإكتساب باختيار العبد ، وبذلك الإكتساب تكون التبعة لله عز وجل ، ويكون الثواب والعقاب [1] .

٤- بذلك يتبين الفرق الكبير بين الفكرين : الجبرية ، الذين لم يؤمنوا بعدل الله عز وجل في نعيمه وعقابه ، وبين من يتوكل على الله عز وجل ، لا يتواكل ، ويفوض همومه لمفرج الهموم، ويؤمن بالله القادر الخالق قال عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾.

وقال سبحانه :﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [2].

وقال تعالى : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ [3].

ولذلك قال تعالى عن الجدال بدون علم :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [4].

وسوف يتبين ذلك جلياً عند توضيح تنوير ابن عطاء الله لإسقاط التدبير أنه الإيمان الصحيح ، التابع من

(١) ابن تيمية : الإمام محمد أبو زهرة : ط دار المعارف : ص ٣١-٣٢ .

(٢) سورة غافر : آية ٦٠ .

(٣) سورة غافر : آية ٦٢ .

(٤) سورة غافر : آية ٥٦ .

القلوب السليمة المطمئنة بالله أرحم الراحمين .

أقسام التدبير :

ليس كل التدبير مذموماً ، فقد يظن القارئ لهذا المؤلف العظيم أن ذم ابن عطاء الله للتدبير مطلقا ربما يكون من التواكل ، دون إعمال العقل ، وسعي الإنسان بالأسباب.

وأنبه أنه قد ابتليت الأمة الإسلامية بفرق ضلت بهذه السلبية المطلقة ، (كما سيتضح) ، ومن الجدير بالذكر أن من عظمة هذا المؤلف وقدره العلمي توضيح ابن عطاء الله المذموم والممدوح من التدبير يوضح ذلك التالي :

" اعلم أن التدبير على قسمين":

- تدبير محمود
- تدبير مذموم .

١- التدبير المحمود :

هو ما كان تدبيراً بما يقربك من الله كالتدبير في براءة الذمم من حقوق المخلوقين ، إما وفاءً ، وإما استحلالاً . وتصحيح التوبة إلى رب العالمين.

والفكرة فيما يؤدى إلى قمع الهوى المردى ، والشيطان المغوى ، وكل ذلك محمود لا شك فيه [1]

٢- التدبير المذموم

هو كل تدبير ينعطف على نفسك بوجود حظها كالتدبير في تحصيل معصية ، أو في حظ بوجود غفلة ، أو طاعة بوجود رياء وسمعة .. ونحو ذلك ، وهذا كله مذموم :

لأنه إما أن يوجب عقاباً ، أو يوجب حجاباً [2] .

أي كل عمل أحله الشرع ، وكان لله عز وجل ، ومن الجدير بالذكر أن عمارة الأرض فرض أو واجب على بني آدم ، لكن المنهي عنه فيها هو طول الأمل ، وأن تكون لغير الله "عز وجل" .

كما يلزم المؤمن الاعتقاد الدائم أنها مرحلة عمرية ، قصيرة مهما طالت،وأن اليوم الآخر هو خير وأبقى.

---

(١) الكتاب نفسه : ص ١٧٣ .

(٢) الكتاب نفسه : ص ١٦٨ - ١٦٩ .

التدبير للدنيا :

لم ينفِ ابن عطاء التدبير للدنيا ولكن قسمه قسمين :

القسم الأول : (تدبير الدنيا للدنيا) :

وهو أن يدبر في أسباب جمعها ، إفتخاراً بها ، واستكثاراً ، وكلما زيد فيها شيئاً ازداد غفلة واغتراراً ، وعلامة ذلك أن يشغله الموافقة ، ويؤديه إلى المخالفة .

القسم الثاني : (تدبير الدنيا للآخرة) :

قد مثله بمن يدبر المتاجر والمكاسب ليأكل منها حلالا ، ولينعم بها على ذوى الفاقة أفضالا ، وليصون بها وجهه عن الناس إجمالا .

وعلامة من طلب الدنيا لله تعالى ، عدم الاستكثار ، والإدخار ، والإسعاف منها ، والإيثار .

ومن ذلك لقد وضح أن علامة الزهد في الدنيا :

في وجدها الإيثار منها ، وفي فقدها وجود الراحة منها . فالإيثار ، شكر لنعمة الوجدان ، ووجود الراحة منها : شكر لنعمة الفقدان .

ويعنى بالموافقة والمخالفة أن يحقق المدبر للدنيا ما تمناه ، وشغله ذلك عن ما خلقه الله من أجله . ومن ثم يؤدي به ذلك إلى مخالفة أمر الله سبحانه وتعالى .

وذلك ثمرة الفهم عن الله ، والعرفان ، لأن الحق تعالى كما قد ينعم عليك بوجودها ؛ كذلك قد ينعم بصرفها ،بل نعمته في صرفها أتم.

ولذلك فليس كل طالب الدنيا مذموماً ، بل المذموم من طلبها لنفسه ، لا لربه ، ولدنياه لا لآخرته .

نعمة العقل :

بناءً على ما سبق من تقسيم ابن عطاء الله للتدبير ، عرف صفة العقل وعظيم نعمته للإنسان ، وكيفية

الاستفادة والتنعم به ، ولذلك قال الإمام ابن عطاء الله في صيغة الآمر :

" اعلم أن صفة العقل عظيمة : فمن عرف نعمة العقل : استحى من الله أن يصرف عقله إلى تدبير ما لا يوصله إلى قربه ، ولا يكون سبباً لوجود حبه .

والعقل أفضل ما منَّ الله به على عباده ، لأنه سبحانه وتعالى ، خلق الموجودات ، وتفضل عليها بالإيجاد ، وبدوام الإمداد .

فهما نعمتان ما خرج موجود عنهما ، ولابد لكل مكون منهما : نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد .

وربما يفهم من هاهنا قولة تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (١).

فميز بعض الموجودات بالنمو كالنبات ، والحيوان البهيمي ، والآدمي فظهرت القدرة فيه ظهوراً أجلى من ظهورها في الموجودات الغير نامية .

وقد أفرد الحيوان الآدمي ، وغير الآدمي بوجود الحياة .

وقد ميز الآدمي عنه فأعطاه العقل وفضله ، وكملت نعمته على الإنسان وبالعقل ، ووفوره وإشراقه ونوره تتم مصالح الدنيا والآخرة .

فصرف نعمة العقل إلى تدبير الدنيا ، بإصلاح شأنه في معاده ، قياماً بوجود شكر المحسن إليه ، والمفيض من نوره عليه .

فلا تصرف عقلك الذي منَّ به عليك في تدبير الدنيا للدنيا .

فقد قال ﷺ " لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضه ما سقى كافراً منها شربة ماء " (٢)

ومثل من صرف عقله في تدبير الدنيا للدنيا ، التي هذه الصفات صفاتها كمثل : من أعطاه الملك سيفاً عظيماً قدره مفخما أمره ، لم يسمح

---

(١) سورة الأعراف : آية ١٥٦ .

(٢) رواه الترمذي وابن ماجة والطبراني الكبير ، وأبو نعيم في الحلية وهو حديث صحيح .

لكثير من رعاياه بمثله ليقتل به أعداءه ويتزين بحمله ، فعمد أخذ هذا السيف إلى الجيف ، فجعل يضربها ، حتى تفلل ظباه وتغير حسنه وسناه ، فجدير إذا اطلع الملك على هذه الحالة منه أن يأخذ السيف منه ، ويعظم عقوبته ، على سوء فعاله ، وأن يمنعه من وجود إقباله (١) .

الناس قسمان :

لقد رأى ابن عطاء الله أن الناس بالنسبة لقسمي التدبير قسمان :

- عبد طلب الدنيا للدنيا
- عبد طلب الدنيا للآخرة .

ويستدل بقول المرسى قائلاً :

" العارف لا دنيا له ، لأن دنياه لآخرته ، وآخرته لربه .

وعلى ذلك تحمل أحوال الصحابة، والسلف الصالح (رضي الله عنهم) فكل ما دخلوا فيه من أسباب الدنيا ، فيهم بذلك إلى الله متقربون ، وإلى رضاه مسببون لا قاصدون بذلك الدنيا، وزينتها ، ووجود لذتها ، وبذلك وصفهم الحق سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ (٢)

وفي آية كريمة أخرى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ (٣). وقال سبحانه أيضاً :

﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ (٤) .. وغير ذلك .

---

(١) الكتاب نفسه : ص ١٦٩ - ١٧٣ (بتصرف) .

(٢) سورة الفتح : آية ٢٩ .

(٣) سورة النور : آية ٣٦ - ٣٧ .

(٤) سورة الأحزاب : أية ٢٣ .

فهم حملوا الأمانة إلينا عن رسول الله ﷺ فقد بينوا الحلال والحرام ، ونشروا الإسلام عملاً وقولاً ، ففتحوا الأقاليم والبلاد ، ولذلك لما ابتغوا بما حاولوه من الدنيا لم يقصدوا بذلك إلا وجه الله الكريم ، فقد كمل أنوارهم ، وطهرت أسرارهم ، ومن ثم أثبت الحق سبحانه وتعالي : أنهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

ولم ينفِ عنهم أنهم لا يتجرون ، ولا يبيعون .

وعلى ذلك ذكر ابن عطاء الله أن كثرة المال لا تنفى الزهد ، والتفويض، والتوكل والاستسلام ، بل ربما تكون هي العلامة على قوة الإيمان والتفويض ، فقد كان لعثمان بن عفان (رضي الله عنه) يوم قتل عند خازنه مائة ألف وخمسون ألف دينار ، وألف درهم ، وخلف ضياعاً بين أريس وخيبر ، ووادي القري ، قيمته مائتا ألف دينار.

وبلغ ثمن مال الزبير (رضي الله عنه) خمسين ألف دينار ، وترك ألف فرس وألف مملوك .

وخلف عمرو بن العاصي رضي الله عنه ثلاثمائة ألف دينار .

وغني عبد الرحمن بع عوف رضي الله عنه ، أشهر من أن يذكر ، وقال عنه رسول الله ﷺ أنه عبد صالح .

فقد كانت الدنيا في أكفهم لا في قلوبهم ، صبروا عنها حين فقدت ، وشكروا الله حين وجدت .

وإنما ابتلاهم الحق سبحانه بالفاقة في أول أمرهم حتى تكملت أنوارهم ، وتطهرت أسرارهم ، فبذلها لهم ، لأنهم لو أعطوها قبل ذلك ، فلعلها كانت آخذة منهم.

فلما أعطوها بعد التمكين ، والرسوخ في اليقين تصرفوا فيها تصرف الخازن الأمين ، وامتثلوا قوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾[1] فكانت الدنيا في أيدي الصحابة (رضي الله عنهم) لا في

(١) سورة الحديد : آية ٧ .

قلوبهم ، ويدل على ذلك خروجهم عنها ، وإيثارهم بها ، وهم الذين قال الحق فيهم :﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[1].

ويكفيك في ذلك : خروج عمر رضي الله عنه عن نصف ماله ، وخروج أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) عن ماله كله ، وخروج عبد الرحمن بن عوف رضي الله عن سبعمائة بعير موقرة الأحمال ، وتجهيز عثمان رضي الله عنه جيش العسرة .. إلى غير ذلك من حسن أفعالهم وسني أحوالهم[2] .

وعلى ذلك يتبين أن التدبير ، وعمارة الأرض هو المقصود من وجود الإنسان على الأرض ، ولكن هناك تدبير مذموم (كما سبق) هو التدبير للدنيا ، كما هو حال أهل القطيعة الغافلين .

(١) سورة الحشر : آية ٩ .
(٢) الكتاب نفسه : ص ١٧٦ – ١٨٦ (بتصرف) .

وإن تدبير الدنيا للآخرة ، ولذات الله عز وجل ، هو المحمود المقصود ، كحال الصحابة المكرمين ، والسلف الصالح .

فإن الحق سبحانه وتعالى لما زكاهم تزكية مطلقة ، لم يقيدها ، فمنهم الفاضل ومنهم الأفضل ، ومنهم الكامل ، ومنهم الأكمل .

أما خطاب الله تعالى في غزوة أحد : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾[3] حتى قال بعض الصحابة رضي الله عنهم : " ما كنا نظن أن أحداً منا يريد الدنيا حتى نزلت هذه الآية "

وكان جواب ابن عطاء الله الظن الجميل ، والإعتقاد الفضيل ، قوله :

" منكم من يريد الدنيا للآخرة ، كالذين أرادوا الغنيمة ليعاملوا الله بما يأخذونه منها ، بذلاً وإيثاراً ، ومنكم من كان مراده تحصيل فضل الجهاد لا غير فلم يلتفت إليها ".[4]

(٣) سورة آل عمران : ص ١٥٢ .
(٤) الكتاب نفسه : ص ١٨٩ .

وعلى ذلك يتبين مقصد ابن عطاء من إسقاط التدبير : حيث قال: " فقد تقرر من هذا أنه ليس إسقاط التدبير الممدوح ، ترك الدخول في أسباب الدنيا ، والفكرة في مصالحها ليستعين بذلك على طاعة مولاه ، والعمل لأخراه .

وإنما التدبير المنهي عنه : هو التدبير فيها لها .

وعلامة ذلك : أن يعصي الله تعالى من أجلها ، وأن يأخذها كيف كان من حلها ، أو غير حلها [1] .

العمل بالأسباب وتقوى الله عز وجل :

قاعدة إيمانية ، وأسس ثابتة في منهج ابن عطاء الله (الأخذ بالسبب لا ينافى التوكل على الله) ، كما أشار إليه رسول الله ﷺ " فاتقوا الله ، وأجملوا في الطلب " .

فقد أباح الطلب ، وكأنه قال : إذا طلبتم فاطلبوا مجملين ، أي كونوا مع الله في القلب متأدبين وإليه مفوضين، فقد أباح صلى الله عليه وسلم ، وجود الطلب ، والطلب من الأسباب.

وقد ذكر الإمام عدة فوائد منها:

١- أباح لهم الأسباب إسناداً لقلوبهم ، وتثبيتاً لنفوسهم ، فكان ذلك من فضله عليهم .

٢- إن في الأسباب صيانة للوجوه عن الإبتذال بالسؤال ، وحفظاً لبهجة الإيمان أن تزول.

٣- من الأسباب أراد الحق تعالى لعباده أن يتآلفوا ، لقوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ فكانت الأسباب سبباً لتعارفهم ، وموجبة لتواددهم ، ولا ينكر الأسباب إلاّ جاهل أو عبد عن الله غافل ؛ ولم يبلغنا أن رسول الله ﷺ ، لّما عاد الناس إلى الله أمرهم بالخروج عن أسبابهم ، ولكن أقرهم على ما يرضاه الله منها ، ودعاهم إلى الهدى والقرآن والسنة محشوان بإثبات الأسباب .

(١) الكتاب نفسه : ص ١٨٩ – ١٩٠ .

ولقد أحسن ما قال :

ألم تر أن الله قال لمريم
إليك فهزى الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أدنى الجذع من غير هزه
إليها ولكن كل شئ له سبب

إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [1] .

والقول الفصل في ذلك :

أنه لابد لك من الأسباب وجوداً، ولابد لك من الغيبة عنها شهوداً ، فأثبتها من حيث أثبتها حكمته ، ولا تستند إليها لعلمك بأحديته [2] .

ومن ثم لقد وضح ما يجب طلبه، والعمل لتحقيقه ، وما يجب البعد عن طلبه حيث قال :

إن المطلوب ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ما هو خير قطعاً: فواجب طلبه من غير استثناء كالإيمان ، وجميع الطاعات.

القسم الثاني : ما هو شر قطعاً ، فواجب الطلب من الله السلامة منه من غير استثناء كالكفر والمعصية .

القسم الثالث : ما هو مبهم الأمر كالغني ، والعز ، والرفعة ، فالطلب يكون من الله تعالى قائلاً : (إن علمت ذلك خيراً لي) [3] .

جهاد النفس ليس في متاعب العباد :

يرى ابن عطاء أن الشرع الحكيم ليس في متاعب العباد ، ولم تأتِ الشرائع بمنع الملاذ للعباد ، وكيف وهى مخلوقة من أجلهم .

وإن الحق تعالى لم يطالب العباد بعدم تناول الملذوذات ، وإنما طالبهم بالشكر عليها إذ تناولوها، فقال تعالى: ﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ [4] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ [5] .

(١) سورة مريم : آية ٢٥ .
(٢) الكتاب نفسه : ص ٣٢٤ – ٣٣٠ .
(٣) الكتاب نفسه : ص ٣٥١ – ٣٥٢ .
(٤) سورة سبأ : آية ١٥ .
(٥) سورة المؤمنون : آية ٥١ .

والمراد أن يكون المراد بالطيبات الحلال ، إذ هو الطيب باعتبار نظر الشرع فلم يتعلق به إثم ، ولا مذمة ، ولا حجبة .

ويمكن أن يكون المراد بالطيبات الملذوذات من المطاعم ، ويكون سر إباحتها والأمر بأكلها ليجد متناولها لذاذتها ، فتنشط همته للشكر ، فيقوم بوجود الخدمة ويرعى حق الحرمة.

المذموم والممدوح :

يرى ابن عطاء الله أن ذم الأشياء ومدحها بما تؤدى إليه :

فالتدبير المذموم في الأشياء :

ما شغلك عن الله ، وعطلك عن القيام بخدمة الله ، وصدك عن معاملة الله والتدبير الممدوح في الأشياء :

هو ما ليس كذلك مما سبق في المذموم ، وهو كل ما يؤدى إلى القرب من الله تعالى ، ويوصلك إلى مرضاة الله عز وجل .

ومن ثم فإن الدنيا تذم وتمدح :

فليست تذم بلسان الإطلاق ، ولا تمدح كذلك .

وإنما المذموم منها ما شغلك عن مولاك ، ومنعك الإستعداد لأخراك .

كما قال بعض العارفين :

" كل ما شغلك عن الله من أهل ، ومال ، وولد ، فهو عليك مشئوم ، والممدوح ما أعانك على طاعته ، وأنهضك إلى خدمته " [1] .

وقد جاء عن رسول الله ﷺ :

" الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلاّ ذكر الله،وما والاه ، وعالم أو متعلم[2].

فالدنيا التي توصلكم إلى طاعة الله، مدحها رسول الله ﷺ من حيث كونها مطّية ، لا من حيث إنها دار إغترار ووجود أوزار .

ومن ثم يرى ابن عطاء الله :

---

(١) الكتاب نفسه : ص ١٩٠ ، ١٩١ (بتصرف) .

(٢) الحديث رواه الترمذي وابن ماجة من حديث أبي هريرة ، قال الترمذي عنه : حسن غريب .

وإذ قد علمت هذا فقد فهمت أن إسقاط التدبير ليس هو الخروج عن الأسباب ، وكيف يمكن أن ينكر الدخول في الأسباب بعد أن جاء قولة تعالى:﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾[1]

وقال ﷺ : " التاجر الأمين الصدوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة " [2] .

فكيف يمكن أحد بعد هذا أن يذم الأسباب ، لكن المذموم منها ما شغلك عن الله ، وصدك عن معاملته.

ولو تركت هذه الأسباب ، وغفلت عن الله ، وبالتجريد كنت مذموماً أيضاً ، وليست الآفات داخلة على المتسببين فحسب ، بل قد تدخل على المتجردين ، كما تدخل على المتسببين.

بل قد يكون دخولها على المتجردين أشد ، إذ الآفات الداخلة على المتسببين دخول في الدنيا مع عدم الدعوى منهم ، ظاهرهم كباطنهم ، مع اعترافهم بالتقصير ، ومعرفتهم بفضل المتفرغين لطاعة الله عليهم ، وآفات المتجردين ربما كانت عجباً ، أو كبراً ، أو رياء ، أو تصنعاً ، أو تزيناً للخلق بطاعة الله استجلاباً لما في أيديهم .

وقد تكون الآفات إعتماداً ، واستناداً إلى الخلق ، وأمارة ذلك : ذمه للناس ، إذا لم يكرموه ، وعتبه عليهم إذا لم يخدموه .

فالمنغمس في الأسباب مع الغفلة، أحسن حالا من هذا بكثير .

وذلك كما يتبين أن آفات المتجرد ترجع إلى أمراض باطنة تخص القلب ، ربما تكون العجب ، والكبر، وحب الذات ، فعبادة هذا المتجرد للأسف رغم تجرده ليست لله عز وجل، والخوف عليه من سوء الخاتمة، ومن الأمر الواضح أن حال هذا

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٨٢ .

(٢) رواه ابن ماجة ، والحاكم في المستدرك عن ابن عمر رضي الله عنهما .

المتجرد من سيطرة خواطر شيطانية على نفسه صورت له الضلال حقاً.

المتجرد، والمتسبب:

على الرغم من أن ابن عطاء الله وضح أن إسقاط التدبير ليس هو الخروج عن الأسباب، والسعي الحلال، وقد قرر أن المذموم: هو ما يؤدى منها إلى الإنشغال عن الله سبحانه وتعالى.

ومن أهم ما وضحه أن الآفات على المتجردين أصعب، وأشد فتكاً منها على المتسبب.

لأنه كما قال:

" قلما تسلم من المخالفة، أو تصفو لك الطاعات مع الدخول في الأسباب، لاستلزامها لمعاشرة الأضداد، ومخالطة أهل الغفلة والعناد.

وأشد ما يعينك على الطاعات رؤية المطيعين، وأشد ما يدخل بك في الدنيا رؤية المذنبين، كما قال ﷺ:

" المرء على دين خليله، فلينظروا أحدكم من يخالك"(1) .... (2).

ثم قال:

" والنفس من شأنها التشبه والمحاكاة، والتزين بصفات من قارنها والمضاهاة. فصحبتك للغافلين معونة لها على وجود الغفلة.

ما يحتاج إليه المتسبب:

وعلى ما سبق قال أن المتسبب يحتاج إلى شيئين هامين: العلم والتقوى.

فالعلم يعلم به الحلال والحرام، وسائر الأحكام المتعلقة بالمعاملات، بيعاً وسلماً وصرفاً والواجبات.

والتقوى تصده عن ارتكاب الأثام.

وقد عرض الإمام ابن عطاء الله عشرة أمور لازمة للمتسبب أن يلتزمها لكي يلتزم، ويعقد قلبه على التقوى والتجرد، والحفاظ عليهما، ومن هذه الأمور:

الأول: عقد العزم مع الله تعالى قبل الخروج من المترل على العفو عن المسيئين إليه، إذ الأسواق محل المخاصمة، والمقاولة.

(1) أخرجه أبو داود، والترمذي، وحسنه الحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح.
(2) الكتاب نفسه: ص ١٩٩ : ٢٠٠ .

الثاني: ينبغي له أن يتوضأ ويصلى قبل خروجه، ويسأل الله السلامة في مخرجه، فينبغي للمؤمن أن يعتصم بالله تعالى، ويتوكل عليه، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(1) ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾(2)

الثالث: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وليجعل ذلك شكراً لنعمة: القوة والتقوى اللذين وهبهما المولى له، وليذكر قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾(3).

الرابع: أن يكون مشيه بالسكينة والوقار، لقولة تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾(4)

وليس ذلك خاصاً بالمشي، بل المطلوب منك أن تكون أفعالك كلها تقارنها السكينة ويلازمها التثبيت.

الخامس: أن يذكر الله تعالى في سوقه، فإنه قد جاء عنه عليه الصلاة والسلام: " ذاكر الله في الغافلين بمترلة الصابر في الفارين"(5).

ومثل ذلك أيضاً قال رسول الله ﷺ في أهمية الذكر حين الغفلة عن الله عز وجل: " مثل الذي يذكر الله والذي لا يذكر الله مثل الحي والميت"(6).

السادس: أن لا يشغله ما هو فيه من المبايعة والمعاش عن النهوض إلى الصلاة في أوقاتها جماعة، قال تعالى:

(1) سورة آل عمران: آية ١٠١ .
(2) سورة الطلاق: آية ٣ .
(3) سورة الحج: آية ٤١ .

(4) سورة الفرقان: آية ٦٣ .
(5) أخرجه الحاكم في المستدرك، والبزار عن ابن مسعود.
(6) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي موسى رضى الله عنه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[1].

السابع : ترك الحلف والإطراء لسلعته ، روي عن رسول الله ﷺ : " التاجر الأمين الصدوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة " [2].

الثامن : كف لسانه عن الغيبة والنميمة .

وهنا ينبه الإمام أن يقوم من المجلس الذي فيه غيبة ، ولا يمنعه الحياء من الخلق من القيام بحق الملك الحق ، فالله أولي أن يستحي منه .

وأن يرضى الله ورسوله ﷺ أحق من أن يرضى الناس .

وقال الشيخ أبو الحسن رحمه الله:

" أربعة آداب إذا خلا الفقير المتسبب منها فلا تعبأن به ، وإن كان أعلم البرية : مجانبة الظلم ، وإيثار أهل الآخرة ، ومواساة ذوى الفاقة ، وملازمة الخمس صلوات في الجماعة".

التاسع : غض بصره عن محارم الله سبحانه ، ومن أراد فتح الله بصيرته فليغض بصره ، وليعلم أن بصره نعمة من الله عليه ، فلا يكن لنعم الله كفوراً وأمانة من الله عنده، فلا يكن لها خائناً، وليتذكر قولة تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [3]

هذه هي أهم الأمور لتجرد قلب المتسبب لله عز وجل ، ففي ملازمة ذلك سبباً لتجديد الأنوار ، وموجباً لوجود الإستبصار .

وقفة مع ابن عطاء الله:

أن تجرد المسلم قلباً وقالباً دون الرجوع إلى الأسباب ومخالطة الناس تماماً ، لم يأمر به الشرع الحكيم ، وإن هذا مخالف للحكم الجليلة من خلق الله عز وجل للإنسان على الأرض ، وإن

(١) سورة الأنفال : آية ٢٤ .

(٢) أخرجه ابن ماجة : والحاكم عن أبي عمر رضي الله عنهما .

(٣) سورة غافر : آية ١٩ .

القلب هو المقصود من إسقاط التدبير ، والفناء ، ولذلك ذكر الأمام ما يجب أن يلتزم به المتسبب من أمور.

وقد سبق أن حياة الإمام ابن عطاء الله كانت بين التجرد والتسبب وبين الإعتكاف ومخالطة الناس ، فقد كانت كل حركاته وسكناته لله عز وجل ، وقد كان شيخ الإسلام (كما سبق) ، كذلك فإن تأليفه لكتابه هذا كان الهدف منه ذلك ، ومن الجدير بالذكر (كما سبق) في تعليم شيخه له، وخاصة عندما حذره من ترك الأسباب.

الحكمة من خلق التدبير والاختيار:

الواقع أن ابن عطاء الله يرى أن ظهور قهر القهار ، هو الحكمة من خلقهما وذلك أنه سبحانه أراد أن يتعرف إلى العباد بقهره ، فخلق فيهم تدبيراً وإختياراً ، ثم فسح لهم بالحجة حتى أمكنهم ذلك ، إذ كانوا في وجود المواجهة والمعاينة ، لم يمكنهم التدبير والاختيار ، كما لا يمكن الملأ الأعلى ذلك .

فلما دبر العباد واختاروا ، توجه بقهره إلى تدبيرهم واختيارهم ، فزلزل أركانهم ، وهدم بنيانهم ، فلم تعرف العباد بقهر مراده ، وعملوا أنه القاهر فوق عباده .

فما خلق الإرادة فيك لتكون لك الإرادة ، ولكن لتدحض إرادته إرادتك ، فتعلم أنه ليس لك إرادة .

كذلك لم يجعل التدبير فيك ليكون لك دائماً فيك ، وإنما جعله فيك لتدبر ويدبر ، فيكون ما يدبر لا ما تدبر .

ولذلك قيل لبعضهم :

بماذا عرفت الله ؟ قال : بنقض العزائم [1] .

ولذلك رأي ابن عطاء الله :

أن الحق تعالى أراد أن يختبر هذا الآدمي فأحوجه لأمور شتى ، لينظر

(١) الكتاب نفسه : ص ٢٣٥ – ٢٣٦ .

أيدخل في استجلابها بغفلة وتدبير ، أو يرجع إلى الله في قسمته وتقديره وهو أنه سبحانه أراد أن يتحبب إلى هذا العبد ، فلما أورد علية أسباب الفاقة، ورفعها عنه ، وجد العبد لذلك حلاوة في نفسه ، وراحة في قلبه ، فأوجب له ذلك تجديد الحب لربه ، قال ﷺ : " أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمته .. الحديث "[1].

ومن الحكم أيضاً التي أوردها : لمناجاة الله سبحانه وتعالى ، والمناجاة شرف عظيم ، كذلك وشكره وحسن عبادته،وليعرف العباد إحسانه ويسره[2].

فهم أسباب إسقاط التدبير :

إن إسقاط التدبير حقيقة إذا سلم الإنسان بها سلم من المتاعب والهموم ، فإذا نزل عليه البلاء ، أو عمل وجاهد بالأسباب ، ولم يحقق مراده فوجب عليه تسليم وتفويض قلبه لله عز وجل. ويجب أن يصاحب عمله دائماً الإيمان بارادة الخالق القدير فوق كل شئ.

لقد ذكر الإمام ابن عطاء الله عدة أمور تساعد السالك على فهمه وإسقاطه التدبير منها :

الأول : سابق تدبير الله له .

وذلك أن تعلم أن الله كان لك قبل أن تكون لنفسك ، فكما كان لك مدبرا قبل أن تكون ، ولا شئ من تدبيرك معه ، كذلك هو سبحانه وتعالى مدبر لك بعد وجودك .

فكن له كما كنت له ، يكن لك كما كان لك .

ويرى أن للأشياء وجوداً في علم الله ، وإن لم يكن لها وجود في أعيانها فالحق سبحانه وتعالى يتولى تدبيرها ، من حيث أنها موجودة في علمه .

ويفسر ذلك قائلاً :

" اعلم أن الحق (سبحانه وتعالى) تولاك بتدبيره على جميع أطوارك ،

(١) أخرج الترمذي في صحيحه ، والحاكم في المستدرك عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) الكتاب نفسه : ص ٢٤١ – ٢٤٢ (بتصرف) .

وقام لك في كل ذلك بوجود إبرازك ، فقام لك بحسن التدبير يوم المقادير ، يوم ألست بربكم ؟ قالوا .. بلي ".

ومن حسن تدبيره لك حينئذ أن عرفك به فعرفته ، وتجلى لك فشهدته واستنطقك وألهمك الإقرار بربوبيته فوجدته ، ثم إنه جعلك نطفة مستودعة في الأصلاب ، وتولاك بتدبيره هنالك، حافظاً لما أنت فيه ، مواصلاً لك المدد بواسطة من أنت فيه من الأباء إلى أبيك آدم .

ثم قذفك في رحم الأم ، فتولاك بحسن التدبير حينئذ ، وجعل الرحم قابلة لك أرضاً يكون فيها نباتك ، ومستودعاً تعطي فيها حياتك ، ثم جمع بين النطفتين ، وألف بينهما .

فكنت علماً لما بنيت عليه الحكمة الإلهية ، من أن الوجود كله مبني على سر الازدواج ، ثم جعلك بعد النطفة علقه مهيأة لما يريد سبحانه وتعالى .

في المضغة صورتك، وأقام بنيتك، ثم نفخ فيك الروح بعد ذلك ، ورزقك من قبل أن يخرجك إلى الوجود ، ثم أبقاك في رحم الأم حتى قويت أعضاؤك ... ثم لما أنزلت إلى الأرض علم سبحانه وتعالى ، أنك لا تستطيع تناول خشونات المطاعم وليس لك أسنان تستعين بها على ما أنت طاعم ، فأجرى الثديين بغذاء لطيف ، بجانب رحمة الأم والأب له بتحصيل مصالحه والرأفة عليه ، والنظر بعين المودة ، وقد ألزم الأب القيام به إلى حين البلوغ .

ثم رفع قلم التكليف إلى أن تكمل الإفهام ، قال الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ [١٢] ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ [١٣] ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ

أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ [١٤] ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ [١٥] ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ تعلم أنك لم تخرج ، ولن تخرج عن إحسانه .

في ذلك ما يلزمك أيها العبد الإستسلام إليه ، والتوكل عليه ، ويضطرك إلى إسقاط التدبير ، وعدم منازعه المقادير .

الثاني : علمك بأن الله تعالى ، هو المتولي لتدبير مملكته ، وعلوها وسفلها غيبها وشهادتها

وكما سلمت له تدبيره في عرشه وكرسيه ، وسمواته وأرضه ، فسلم له تدبيره في وجودك إلى هذه العوالم ، فإن نسبة وجودك إلى هذه العوالم نسبة توجب بلا شك ، كما أن نسبة السماوات السبع ، والأرضين السبع بالنسبة إلى الكرسي ، كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض ، والكرسي والسماوات السبع ، بالنسبة إلى العرش كالحلقة الملقاة في فلاه من الأرض ، فماذا عسي أن تكون أنت في مملكته ؟!!

فاهتمامك بأمر نفسك ، وتدبيرك لها منك جهل بالله ، بل الأمر كما قال سبحانه ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ (٢)

فلو أن العبد عرف ربه لاستحى أن يدبر معه ؛ لأن المؤمنين لما كشف عن بصائر قلوبهم شهدوا أنفسهم مدبَرين لا مدبرين ، ومصَرفين لا متصرفين، ومحَركيـــن لا متحركيـــن (٣)

الثالث : علمك بأنك ملك لله . وليس لك تدبير ما هو لغيرك . فما ليس لك ملكه ، ليس لك تدبيره

وإذا كنت أيها العبد لا تنازع فيما تملك ، ولا ملك لك إلا بتمليكه

(١) سورة المؤمنون : آية ١٢ – ١٦ .

(٢) سورة الزمر : آية ٦٧ .

(٣) الكتـــاب نفســـه : ص ٦٣ – ٧٢ (بتصرف) .

إياك ، وليس لك ملك حقيقي ، لاسيما وقد قال سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ (١) .

فلا ينبغي لعبد بعد المبايعة تدبير ولا منازعة ، لأن ما بعته وجب عليك تسليمه ، وعدم المنازعة فيه ، فالتدبير فيه نقض لعقد المبايعة.

وبناء علي ذلك يحكى ما تعلمه من شيخه قائلا :

" ... ودخلت على الشيخ أبي العباس المرسى (رحمه الله) يوماً ، فشكوت إليه بعض أمري فقال : إن كانت نفسك لك فاصنع بها ما شئت ، ولن تستطيع ذلك أبدا ، وإن كانت لبارئها فسلمها له يصنع بها ما شاء " ثم قال :

" الراحة في الإستسلام إلى الله ، وترك التدبير معه ، وهو العبودية "(٢).

الرابع : علمك بأنك في ضيافة الله، لأن الدنيا دار الله ، وأنت نازل فيها عليه ، ومن حق الضيف أن لا يعول هماً مع رب المنزل.

الخامس : نظر العبد إلى قيومية الله تعالى في كل شئ ، ألم تسمع قوله تعالى ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (٣)

فهو سبحانه قيوم الدنيا ، والآخرة ، قيوم الدنيا بالرزق والعطاء ، والآخرة بالأجر والجزاء .

فإذا علم العبد قيومية ربه به ، وقيامه عليه ، ألقى قياده إليه ، وانطرح بالإستسلام بين يديه ، فألقى نفسه بين يدي ربه مسلماً ، ناظرا لما يريد عليه من الله حكماً.

السادس : هو اشتغال العبد بوظائف العبودية التي هي مغياة بالعمر:

لقوله تعالى (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) (٤).

(١) سورة التوبة : آية ١١ .

(٢) الكتاب نفسه : ص ٧٤ (بتصرف) .

(٣) سورة البقرة : آية ٢٥٥ . وسوره آل عمران : آية ٦ .

(٤) سورة الحجر : آية ٩٩ .

فإذا توجهت همته إلى رعاية عبوديته ، شغله ذلك عن التدبير لنفسه والإهتمام لها .

ويستشهد بقول أبو الحسن الشاذلي (رحمه الله تعالى) :

" اعلم أن الله تعالى عليك في كل وقت سهما في العبودية ، يقتضيه الحق سبحانه وتعالى ، منك بحكم الربوبية ، والعبد مطالب بذلك كله ، ومسئول عنه ، وعن أنفاسه التي هي أمانة الحق عنده ، فأين الفراغ لأولى البصائر عن حقوق الله حتى يمكنهم التدبير لأنفسهم ، والنظر في مصالحها باعتبار حظوظها ومآربها ، ولا يصل أحد إلى منة الله إلا بغيبته عن نفسه ، وزهده فيها ، مصروفة همته إلى محاب الله تعالى متوفرة دواعيه على موافقته ، [1]

لقد عرض ابن عطاء الله عشرة أسباب توجب تقوية العباد عند البلاء، هي بتصرف :

" اعلم أن الحق سبحانه إذا أراد أن يقوي عبداً على ما يريد أن يورده عليه من وجود حكمه أنوار وصفه ، وكساه من وجود نعته ، فتنزلت الأقدار ، وقد سبقت إليه الأنوار، فكان بربه لا بنفسه ، فقوى لأعبائها..... " [2]

أولاً : إنما يعينهم على حمل الأقدار ورود الأنوار :

وذلك لأن الأنوار إذا وردت كشفت للعبد عن قرب الحق سبحانه وتعالى منه وأن هذه الأحكام لم تكن إلاّ عنه ، فكان عمله بأن الأحكام إنما هي سيده ، سلوة له ، وسبب لوجود صبره ؛ ألم تسمع لما قال الله سبحانه ، لنبيه ﷺ : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [3] .

(١) الكتاب نفسه . ص ٧٨ – ٧٩ (بتصرف) .

(٢) الكتاب : ص ٣٤ .

(٣) سورة الطور : آية ٤٨ – ٤٩ .

أي ليس هو حكم غيره ، فيشق عليك ، بل هو حكم سيدك القائم بإحسانه إليك .

ثانيا : إنما يعينهم على حمل الأحكام فتح باب الإفهام :

وذلك لأن الفهم يرجعك إلى الله ويحثك إليه ، ويجعلك متوكلا عليه ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [1] .

أي كافيه وواقيه ، وناصره على الأغيار ، وراعيه ، لأن الفهم عن الله تعالى يكشف لك سر العبودية فيك ، وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [2] .

ثالثاً : إنما يعينهم على حمل البلايا واردات العطايا :

وذلك أن واردات العطايا السابقة ، من الله إليك تذكرك لها مما يعينك على حمل أحكام الله ، إذ كما قضي لك بما تحب ، اصبر له على ما يحب فيك ، ألم تسمع قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا ﴾ [3] .

فسلاهم الحق فيما أصيبوا بما أصابوا ؛ هذا من العطايا السابقة ؛ وقد يقترن بالبلايا في حين ورودها ، ما يخففها على العباد المقربين من ذلك ، أن يكشف لهم عن عظيم الأجر الذي ادخره لهم في تلك البلية .

ومنها : ما يتزله على قلوبهم من التثبيت والسكينة .

ومنها : ما يورده عليهم من دقائق اللطف ، وتنزلات المنن .

الرابع : إنما يقويهم علي حمل أقداره شهود حسن إختياره :

وذلك : أن العبد إذا شهد حسن اختيار الله تعالى علم أن الحق سبحانه لا يقصد ألم عبده ، لأنه به رحيم ؛ ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ﴾ .

(١) سورة الطلاق : آية ٣ .

(٢) سورة الزمر : آية ٣٦ .

(٣) سورة آل عمران : آية ١٦٥ .

وقد رأي رسول الله ﷺ امرأة معها ولدها ، فقال :

أترون هذه طارحة ولدها في النار؟

قالوا : لا يا رسول الله .

فقال ﷺ (الله أرحم بعبده المؤمن من هذه بولدها) [1] .

غير أنه سبحانه وتعالى يقض عليك بالآلام لما يترتب عليها من الفضل والإنعام ، ألم تسمع قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [2] .

ولو وكل الحق سبحانه ، العباد إلى إختيارهم لحرموا وجود منته ، ومنعوا الدخول إلى جنته ، فله الحمد على حسن الاختيار ؛ ألم تسمع قولة تعالى :﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ [3] .

وإنه ليخفف عنك ألم البلايا ، علمك بأنه سبحانه وتعالى ، هو المبتل لك ، فالذي واجهتك منه الأقدار ، هو الذي له فيك حسن الإختيار .

الخامس : إنما صبرهم على وجود حكمه ، علمهم بوجود عمله :

وذلك : أن علم العبد ، بأن الحق سبحانه مطلع عليه ، فيما ابتلاه ، يخفف عنه أعباء البلايا ، ألم تسمع قولة تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [4] .

السادس : إنما صبرهم على أفعاله ظهوره عليهم بوجود جماله :

لأن حلاوة التجلي ربما تغيبهم عن الإحساس بالألم ، ويكفيك في ذلك قوله تعالى :

---

(١) الحديث أخرجه الطبراني في المعجم الصغير عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) .

(٢) سورة الزمر : آية ١٠ .

(٣) سورة البقرة : آية ١٠ .

(٤) سورة الطور : آية ٤٨ .

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ [1] .

السابع : إنما صبرهم على القضاء ، علمهم بأن الصبر يورث الرضا :

وذلك : أن من صبر على أحكام الله ، أورثه ذلك الرضا من الله ، فتحملوا مرارتها طلباً لرضاه ، كما يتجرع الدواء المر لما يرجى فيه من عاقبة الشفاء .

الثامن : إنما صبرهم على الأقدار ؛ كشف الحُجب والأستار :

وذلك : أن الحق سبحانه وتعالى ، إذا أراد أن يحمل عن عبد ما يورده عليه كشف الحجاب عن بصيرة قلبه ، فأراه قربه منه ؛ فغيبه أنس القرب عن إدراك المؤلمات ؛ ولو أن الحق سبحانه وتعالى تجلى لأهل النار بجماله وكماله ، لغيبهم ذلك عن إدراك العذاب ، كما أنه لو احتجب عن أهل الجنة لما طاب لهم التنعيم .

التاسع : إنما قواهم على حمل أثقال التكليف ورود أسرار التصريف:

وذلك : لأن التكاليف شاقة على العباد ، ويدخل في ذلك امتثال الأوامر والإنكفاف عن الزواجر ، والصبر على الأحكام ، والشكر عند وجود الأنعام .

فهي إذن أربعة :

طاعة ، ومعصية ، ونعمة ، وبلية.

وهي أربع لا خامس لها ، ولله عليك في كل واحدة من هذه الأربع عبودية يقتضيها منك بحكم الربوبية .

فحقه عليك في الطاعة : شهود المنة منه عليك فيها .

وحقه عليك في المعصية : الاستغفار مما ضيعت فيها .

وحقه عليك في البلية : الصبر معه عليها .

وحقه عليك في النعمة : وجود الشكر منك فيها .

---

(١) سورة يوسف : آية ٣١ .

ويحمل عنك أعباء ذلك كله .

الفهم ، وإذا فهمت أن الطاعة راجعه إليك ، وعائدة بالجدوى عليك ؛ صبرك ذلك على القيام بها . وإذا علمت أن الإصرار على المعصية والدخول فيها ، يوجب العقوبة من الله آجلاً ، وانكشاف نور الإيمان عاجلاً ، كان ذلك سبباً للترك منك لها .

وإذا علمت أن الصبر تعود عليك ثمرته ، وتنعطف عليك بركته ، سارعت إليه وعولت عليه .

وإذا علمت أن الشكر يتضمن المزيد من الله لقولة تعالى ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ كان ذلك سبباً لمثابرتك عليه ؛ ونهوضك إليه .

العاشر : إنما صبرهم على أقداره علمهم بما أودع فيها لطفه وإبراره :

وذلك : أن المكاره أودع الحق تعالى فيها وجود الألطاف ، ألم تسمع قوله تعالى :

﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ .

وقوله ﷺ: " حفت الجنه بالمكاره، وحفت النار بالشهوات " [1] .

وفي البلايا والاسقام والفاقات من أسرار الألطاف ما لا يفهمه إلا أولوا البصائر:

ألم تر أن البلايا تخمد النفس وتذلها ، وتدهشها عن طلب حظوظها. ويقع مع البلايا وجود الذلة ، ومع الذلة تكون النصرة .

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [2]

تعلم رسوخ اليقين :

يري ابن عطاء الله أن الطريق الصحيح ، واليسير لهذا النهج هو تعلم كيفية رسوخ اليقين :

أولاً : التخلص من الوساوس ، والهواجس ، بصدق النية للعمل الصحيح ، الذي هو اليقين .

(١) حديث صحيح أخرجه الإمام مسلم فيما رواه أبو هريرة ، وأس رضي الله عنهما ، والإمام أحمد في مسنده والترمذي .

(٢) سورة آل عمران : آية ١٢٣ .

ومفهوم اليقين :

هو الاعتقاد الجازم الذي لا شك فيه ، عن دليل ، وبرهان ، وشهود ، وعيان .

ومن ثم يرى أن اليقين رأس الدين[1] .

قال ﷺ : (اليقين هو الإيمان كله) .

وعلى ذلك لا يستطيع الإنسان التخلص مما هو فيه من قلق وتعب هواجس النفس ، والوسواس بها إلاّ : بالمعرفة الواقعية ، لحقيقة كل الأشياء ، عن دليل ، وبرهان ، وعيان .

ثانياً : مجالسة أهل اليقين :

قال ﷺ (تعلموا اليقين) ، ويفسر ابن عطاء الله هذا الحديث الشريف، بجانب ما سبق : بأن تعلم اليقين بمجالسة أهل اليقين ، والاقتداء بهم ، فإن قليل من اليقين خير من كثير من العمل . وهذا واضح في كثير من الناس ، نرى أعمالهم الشرعية كثيرة ، لكن قلوبهم ضعيفة بقلة اليقين ، فأي بلاء لهم يظهر حقيقة ما هم فيه . وعليه من ضعف اليقين بالله عز وجل .

ثالثاً: الذكر للذكرى والتذكر.

فكما أن الذكر لتطهير النفس ، وسموها عن الدنايا ، فإنه عقيدة وحقيقة في سلوك الإنسان .

فشتان بين ذاكر متذكر يطبق ذكره على فكره ، وعمله ، وبين ذاكر ضعيف النفس تؤثر فيه الأحداث المختلفة .

فالذاكر الأول : مطمئن النفس ، وعلى يقين من ربه (عز وجل) ، أما الثاني : تعذبه علائق وعوائق نفسه ، يخضع للذلائل ، ومن ثم فهو مشتت ومعذب ، بما يحدث له من فتن وبلاء .

علامات إشراق اليقين :

لقد تبين أن اليقين هو علم ، ومعرفة ، وعمل يخص القلب ، ويظهر

(١) تقريب الأصول لتسهيل الوصول : الزبني دجلان : ط البابي الحلبي : ص ٢٢٠ .

أثره على الجوارح ومن ثم فمن علاماته :

أولاً : أن لا يزاحمه الوهم ، ولا يخالطه الريب،ولا يصحبه الإضطراب.

يظهر أثره على الجوارح بالإنحياش إلى الله عز وجل ، والإشتياق إلى حضره جماله والسكون والخضوع تحت قهر جلاله ، والمسارعة إلى إبتغاء مرضاته يلهج اللسان بذكره ، ويشغل القلب بالفكر في عظمته ، وتهيم الروح في حضره قربه .

قال الإمام ابن عطاء في حكمه :

﴿ لو أشرق للأنوار اليقين لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها، ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء عليها﴾ .

من شرح الإمام ابن عجيبة رأيه :

لو أشرق نور العلم الذي لا يزاحمه وهم ، ولا يخالطه ريب ، ولا يصحبه اضطراب ، لرأيت الآخرة الآتية حاضرة لديك ، أقرب إليك من أن ترحل إليها ، ولرأيت محاسن الدنيا الوهمية الفانية قد ظهرت كسفة الفناء عليها ، أي قد أنكشف نور وجودها بظهور ظلمة فنائها ، فصار ما كان ظاهراً باطناً ، وما كان باطناً صار ظاهراً ، وما كان كثيفاً صار لطيفاً ، وما كان لطيفاً ، صار كثيفاً ، وما كان غيباً صار شهادة ، وما صار شهادة صار غيبا ، وإنما يبعد ذلك عن الخلق ضعف إيمانهم ، وقلة نور إيقانهم .

ولو أشرق نـور اليقين في قلوبهم، لرأوا الدنيا مكسوفة أنوارها ، بادية عوارها ، كما رآها حارثة رضي الله عنه ، حين أخبر عن حقيقة إيمانه [1] .

فقد روى عن انس رضي الله عنه قال :

قال النبي ﷺ لحارثة بن سراقه : (كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمناً بالله حقا ، قال أنظر ما

(١) إيقـاظ الهمـم : ص ٢٥٠ ، ٢٥١ (بتصرف) .

تقول ، فإن لكل قول حقيقة ، قال : يا رسول الله عزفت نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلي ، واظمأت نهاري ، فكأنى بعرش ربى بارزا ، وكأني أنظر إلى أهل الجنه يتزاورون فيها ، وكأنى انظر إلى أهل النار يتعاوون فيهـا ، فقـال : أبصـرت فالـزم ، عبـد نور الله الإيمان في قلبه ... إلى آخر الحديث الشريف) [1] .

ولذلك فنور اليقين هو بصيرة المؤمن ، الذي تذهب به دواعي النفس وعوائقها فلا تأمر بسوء ، ولا تطالب بارتكاب مكروه ، ينشرح الصدر ، قال ﷺ (إن النور إذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفتح ، قيل له يا رسول الله هل لذلك من علامة يعرف بها ؟ قال : نعم ، التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله) [2] .

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٤ / ٢٦٦ – ٢٦٧ ، عن الحارث بن مالك الأنصاري (رضي الله عنه) من حديث طويل .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤ / ٣١١ : كتاب (العين)باب (علامة النور في الصدور) .

وأشير إلى أن هذا علاج للقهريات ، والمصائب وكل ما يبتلي به الإنسان في الدنيا.

ثانياً : عندما يرسخ اليقين ، تتم درجاته ، فاليقين محله القلب ، وهو العمل بالشريعة وعين اليقين ، هو الإخلاص فيها أي الشريعة ويعني بالإخلاص خلاص النفس من علائقها، وتوجهها لله الواحد الأحد (عز وجل).

أما حق اليقين : فهو المشاهدة العملية ، لثمرة توجهها لله الواحد الأحد ،فمن تخلص من ظلمة الحجاب، يجد عزة المؤمن بالأمور الأخروية ، فصار موقناً بها بعد رفع الحجاب .

فالله عز وجل يتولى أمر المؤمنين يخرجهم من ظلمات أنفسهم إلى نور اليقين قال عز وجل : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [3] .

(٣) سورة البقرة : آية ٢٥٧ .

ومن ثم قال ابن عطاء الله في حكمه :

﴿ شعاع البصيرة يشهدك قربه منك ، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده وحق البصيرة يشهدك وجوده لا عدمك ، ولا وجودك ﴾ .

شعاع البصيرة ، وعين البصر : نور العلم .

وحق البصيرة : نور الحق .

فالعقلاء بنور عقولهم شهدوا أنفسهم ، وشاهدوا ربهم قريباً منهم : أي بالعلم والإحاطة .

والعلماء بنور علمهم يشهدوا أنفسهم عدماً في وجود ربهم ، أما المتحققون بنور الحق لم يشاهدوا معه سواه . [1] .

---

(١) غيث المواهب في شرح الحكم : النفري : ط السعادة : ص ٣٧ ، ٣٨ (بتصرف) .

الفصل الثالث
وبال التدبير المذموم وخطره

تمهيد :

إن وبال التدبير عظيم على النفس البشرية ، إذا كان مجرداً عن التوكل على رب هذا الكون سبحانه وتعالى .

وأنبه إلى أن كل المشاكل على الأرض من وباله ، كالأمراض النفسية والعضوية وكل ذلك وغيره من استقلال العقل البشرى بتحديد النافع والضار واستقلال الإرادة البشرية بالقدرة على تحقيق ذلك ، بالرغم من الاعتراض والعوائق .

وبالتالي يسعى الإنسان جاهداً بتطويع جوارحه لتحقيق ما يأمله وما يتمناه ورأى أنه الصالح له ، وهنا تظهر الفجوة الكبيرة بين الإرادة البشرية الإلحاحية ، وبين عجز الجوارح عن التحقيق لما هو في خاطرها ، وكل ذلك والواقع المحتوم الذي يصطدم به الإنسان من البلاء المتنوع على الانسان ، وبذلك يدور الإنسان في

دائرة الهموم والغموم ، فربما أهلكته ، ودمرته .

وربما ذهب عقله بسببها ، أو فقد التحكم والسيطرة على نفسه ، المتوترة دائماً.

وعديد من الأمراض المستعصية علاجها ، المعروفة وغير المعروفة .

ومن هنا فإن الإيمان بالله الواحد الأحد ليس كلاماً ولا هو شهادة لسان، بل هو تعقل ، وعلم ومعرفة وأعمال صالحة أمر بها الشارع الحكيم ، وجهاد النفس في العمل بالأسباب والتوكل على مسبب الأسباب عز وجل . يوضح ذلك التالي :

انبعاث القلب في طلب الشيء :

يقول الإمام ابن عطاء الله في حكمه :

﴿ سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار﴾ شرح هذه الحكمة الإمام أحمد بن زروق قائلاً :

" السوابق : جمع سابقة أي مقدمة .

والهمم : قوي النفس المنبعثة للأمور بشدة .

وتخرق : تنفذ بقوة .

والأسوار : جمع سور . وهو ما يحصر به الشيء استعير هنا : للأقدار المحيطة بكل شئ ، وهو أنواع :

أحدها :الهمم : القواصر ، وهي التي تقتضي التهمم دون حزم ولا عزم.

الثاني: الهمم : المتوسطات ، وهي التي توجب العزم ، والحزم ، ووجود الفعل سواء وقع عنها إنفعال ، أم لا .

الثالث : الهمم : السوابق ، وهي قوي النفس الفاعلة في الوجود ، بلا تردد ولا توقف ، بل التي يقع الانفعال من مجرد حصولها [1] .

---

(١) قرة العيون : أحمد بن زروق : ط دار التراث العربي (بيروت - لبنان) ص ٥٧ ، ٥٨.

ومن ثم فإن الهمة على حسب قوة تدبير صاحبها ، فإن الهمة كما سبق : قوة انبعاث في النفس إلى مقصودها تعلو بعلوه ، وتسفل بتسفله . وتعيش لذلك في طاحونة بين ركونها إلى سبب وآخر .

ومن الجدير بالذكر أجد من شرح الإمام أحمد بن زروق أيضاً ما يوضح تفصيل ما يحمد التدبير فيه . وما يذم ، يوضح ذلك التالي :

الإعتماد على العمل ، وقهر النفس :

يقول ابن عطاء الله في حكمه :

﴿من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل﴾ .

الإعتماد على الشئ حصر القوة فيه ، يعني الإستناد إليه في تحصيل المقصود والرجاء : طمع يصحبه عمل في سبب المطموع فيه لتحصيله .

والعمل : الحركات البدنية والقلبية عموماً .

والنقصان : ضد الزيادة ، وهو سر الحقيقة .

وقد وضح بن زروق هذه الحكمة في ثلاث اوجه :

أحدها : أنها أصل كل أصل. لأن الاعتماد هو أول الحركات النفسانية للمقاصد ، والمقصود ، إذ هو باعث النفس لما تريده .

الثاني : أنها متعلقة بما هو مبني كل عمل في صلاحه وفساده ، ونقصه وكماله فإن جرت بالكمالات جرى بها كل عمل ، وإلا فلا .

الثالث : التنبيه على أن التهمم بالأصول مقدم ، لأنهم إذا حرموا الوصول لتضييعهم الأصول ، وقد ذكر ابن عطاء الله الوجه المطلوب لأنه أهم . واقتصر على العلامة لأنها أقرب وأمس بالمراد [1] .

ومن ثم يتبين لمن أراد معرفة نفسه جلياً إذا صدق توكله على

---

(١) قرة العين : ص ٤٩،٥٢ (بتصرف)

الله ، وبالإيمان الصحيح بالله عز وجل يجد ذلك عند وجود الذلل، والزلل هنا كل ما يقهر النفس ويضعفها .

ولذلك رأي الإمام أحمد بن زروق أن أحوال الناس في ذلك ثلاثة :

١.رجل يزيد رجاؤه بعمله ، وينقص بوجود زللـه ، لاستشعاره حصول المراد بالعمل ، وفوات المقصد بوجود الزلل ، وهذا معتمد على عمله في تحصيل أمله ، فإن كان مستمراً فهو من الغافلين ، وان كان مقصراً فهو من العاملين لقوله تعالى ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[1] .

وهذا مقامه التحقيق بالإسلام .

٢.رجل زاد شكره بعمله ، وزاد التجاؤه بزللـه ، لإستشعار منة الله في العمل وفراره لمولاه في الزلل ، وهذا معتمد على فضل مولاه في الزلل.

(١) سورة الحشر : آية ١٨ .

وهذا معتمد على فضل مولاه ، وناظر إليه فيما به يتولاه ، فهو يرجع إليه في السراء بالحمد والشكر ، وفي الضراء بإظهار الفاقة والفقر ، تحقيقاً لقولة تعالى ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾[2] ومقامه التحقيق في الإيمان .

إذ بساطه ما اقتضاه عقد إيمانه .

٣.رجل أسلم نفسه لمولاه فلم يرعجه ما به تولاه ، بل شأنه السكون تحت جريان الأحكام ، وفقد الاضطراب والاتهـام ، فلا يزيد رجاءه لعلة ، ولا ينقص لسبب ، لو وزنا لتعادلا في كل حال من أحواله . وذلك من عدم اعتباره بأعماله وآماله، نظراً لسابق القسمة ، وقياماً بحق الحرمة ، وعملاً على قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾[3] .

(٢) سورة النحل : آية ٥٣ .

(٣) سورة الأنعام : آية ٩١ .

فهو دائم الفكر والذكر ، وبذلك من تحققه بمقام الإحسان ، إذ صارت له الحقيقة في مقر العيان .

والإحسان ربط الحق بالحقيقة ، وذلك يقضي بفناء الخليقة ، فلذلك لا يلفت صاحبه لغير مولاه[1] .

قال ابن عطاء الله في حكمه : ﴿ أرح نفسك من التدبير ﴾ .

يرى أحمد بن زروق في شرحه لهذه الحكمة .

قوله (أرح) : لتعب التدبير الذي يسيطر على النفوس .

والتدبيـر : تقدير شئون يكون عليها في المستقبل ، مما يخاف أو يرجى بالحكم ، لا بالتفويض .

فإذا كان بالتفويض فليس بتدبير: ويختلف حكمة بإختلاف متعلقه ، فالدينى نية خير .

والدنيوي أمنية وتأميل — والطبيعي : شهوة — إلى غير ذلك من أنواعه .

فإذاً مقابل التدبير التفويض : وهو النظر لما يبديه الحق من غير تفصيل ، ولا حكم ويتبعه التوكل في حصول المقصد رجاء في الله (عز وجل) وحسن ظن به .

ويرافقه الاستعانة بالله : في القيام بالسبب الموصل إلى المقصود في حاله .

ويظهر حقيقة المجموع أي (التفويض ، والتوكل ، والاستعانة بالله) في أخذ الأمر بأحد ثلاث :

أولها : الشكر إن أعطي مراده .

الثاني : الرضي إن صد عن مقصوده .

الثالث:السكون عن الاضطراب في الجملة ، والعكس دليل العكس[2] .

وهذا يوضح ما يجب أن يتمسك به المتسبب أثناء عمله .

(١) المرجـع السـابق : ص ٥٠ : ٥٢ (بتصرف) .

(٢) قرة العيون : ص٦١ ، ٦٢ .

حيث إن الصحة الروحية من الصحة البدنية ، ولا يصح البدن إلاَّ بفهم الشرع.

ولذلك رأي أحمد بن زروق في شرحه للحكم أن بواعث التدبير ثلاثة:

أولها :الاسترسال مع الأسباب، دون الرجوع إلى مسبب الأسباب وخالقها عز وجل ، حيث إن الرجوع بالإيمان يؤدى إلى التوكل الصحيح ، والتسليم على أي حال إراده الله عز وجل ولذلك قال في الثاني :

الثاني : الغفلة عن حقائق التوحيد.

الثالث : الاعتماد على الحركات في الرد ، والقبول والنظر في الحيل والأسباب في الوجود [1].

قال إبراهيم الخواص (رضي الله عنه) [2]: " العلم كله في كلمتين : لا تتكلف ما كفيت ، ولا تضيع ما استكفيت "

وقال ذو النون المصري (رضي الله عنه) [3] .

" إذا كنت قائماً بما عليك ، ولم تلتفت لما هو إليك فأنت كامل العقل ، وإذا كنت متعلقاً بالله في أحوالك لا بأعمالك فأنت عارف " .

وعلى ذلك رأي أحمد بن زروق في شرحه: أن تفاصيل ما قدم به غيرك، أو وكل إلى قيامك به ثلاث تقابلها ثلاثة :

أولها : التكليف : وأنت مأمور فيه بالاتباع .

الثاني : الأجل : وأنت مأمور فيه بالصبر على عوارض الدهر .

---

(١) تابع قرة العيون : ص ٦٢ .

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الخواص ، المتوفى سنة إحدى وتسعين ومائتين هجرية .

(٣) هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم الأخميمي المصري ، من أهل مصر (نوبي) الأصل ، كان عالماً راهداً فصيحاً ، حكيماً وشوا به لدي الخليفة العباسي المتوكل ، فاستحضره من مصر ، فلما وعظه رده إلى مصر مكرماً ، وتوفي بالجيزة سنة ٢٤٥هـ - ٨٥٩م .

الثالث : القيام بأمرك : وأنت مأمور فيه بالتوكل والتفويض .

فإن قمت بكل في محله كنت سالم البصيرة منور السريرة ، وإلاَّ فعلي العكس كما نبه علية المؤلف ، إذ قال أي ابن عطاء في حكمه : {اجتهادك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك} [1].

وبناءً على ما سبق في مفهوم التدبير أنه لا ينافى الأخذ بالأسباب من مسبب الأسباب (عز وجل) ، والتوكل عليه ، وتفويض وتسليم القلوب إليه (عز وجل).

وقد وضح بن زروق حال من تدبر التدبير المذموم في ثلاثة أوجه :

أحدها : ما دل عليه الحال من قلب الأحكام ، وإستبدل الضوء بالظلام ، بوضع الشيء في غير محله ، واستعمله في غير وجهه .

الثاني : ما فيه من إيثار الدنيا على الآخرة شغلاً بها دون حق الربوبية.

الثالث : ما فيه من الغفلة عن حرمة الربوبية ، وصريح الفرار من العبودية .

وذلك جار فى كل وجه من وجوه المسألة ، حتى لو كان المضمون في عين المطلوب ، كما أشار إليه ابن عطاء الله بمسألة الدعاء ، إذ قال { لا يكن تأخر أمور العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجباً ليأسك }

فأي عبد توفر عقله ، واتسع نوره تنـزلت عليه السكينة من ربه ، فسكنت نفسه عن الاضطراب ، ووثقت بمسبب الأسباب ، فكانت مطمئنة ؛ وساكنة لأحكام الله ، وثابتة لأقداره ، ممدودة بتأييده وأنواره ، خارجة عن التدبير والمنازعة ، مسلمة لمولاها بأنه يراها : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [2] .

---

(١) تابع قرة العيون : ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) سورة فصلت : آية ٥٣ .

فاستحقت لذلك أنه يقال لها مطمئنة ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ [٢٩] ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴾ (١) .

معنى ذلك أن طمأنينة النفس ، لا سبيل لها إلاّ من هذا الباب .

استسلام القلب ، والعبرة من استسلام الخليل (علية السلام) :

إن حقيقة الإسلام هو استسلام القلوب لقهر الله عز وجل ، ومن ثم فإن أعمال القالب الشرعية في وجهها الصحيح حقيقة نابعة من القلب ، بهذا الباب العظيم ، فالعبادة خلاص وإخلاص ، لقد وضح ذلك جلياً ابن عطاء الله السكندري ، مستشهداً بقصة الخليل (علية السلام) في استسلامه لله عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ [١٣١] إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (٣) .

وقال سبحانه : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾

وقال سبحانه: ﴿ فَلَهُ أَسْلِمُوا ﴾ (٤) .

وقال سبحانه : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ (٥) .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ (٦) .

وقال سبحانه : ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (٧) .

وعلى ذلك رأي أن الإسلام له ظاهر وباطن :

(١) سورة الفجر : آية ٢٧ – ٣٠ .

(٢) سورة البقرة : آية ١٣٠ – ١٣١ .

(٣) سورة آل عمران : آية ١٩ .

(٤) سورة الحج : آية ٣٤ .

(٥) سورة آل عمران : آية ٢٠ .

(٦) سورة لقمان : آية ٢٢ .

(٧) سورة يوسف : آية ١٠١ .

ظاهره . الموافقة لله تعالى

باطنه : عدم المنازعة له .

فالإسلام :عمل القالب ، أو الجوارح ، وعدم المنازعة ، وهو يقصد الشريعة الإسلامية بأقسامها .

والاستسلام : هو عمل القلوب فالإسلام ظاهر ، والاستسلام باطن ذلك الظاهر .

فالمسلم من أسلم نفسه إلى الله . فكان ظاهراً بامتثال أمره وباطناً بالاستسلام إلى قهره .

وتحقيق مقام الاستسلام بعدم المنازعة لله في أحكامه ، والتفويض له فمن أسلم لله طولب بالإستسلام ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١)

وقد استشهد بقصة إبراهيم (علية السلام) ، لما قال له ربه أسلم ، قال : ﴿ أسلمت لرب العالمين ﴾ .

فلما زج به في المنجنيق .

وروي أنه استغاثت الملائكة ، فقالت : " يا ربنا ! هذا خليلك قد نزل به ما أنت أعلم " فقال الحق سبحانه وتعالى : " اذهب إليه يا جبريل ، فإن استغاث بك فأغثه ، وإلاّ فاتركني وخليلي

فلما جاءه جبريل (علية السلام) في أفق الهواء قال :

ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا، وأما إلى الله ، فبلى .

قال : فاسأله .

قال : حسبي من سؤالي علمه بحالي (٢) .

فلم يستنصر بغير الله ، بل استسلم لحكم الله مكتفياً بتدبير الله له عن تدبير لنفسه ، وبرعاية الحق له ، عن رعايته لها ، ويعلم علم اليقين أن الله عز وجل لطيف به في جميع أحواله، ولذلك أثنى عليه بقوله : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ (٣) .

(١) سورة الروم : آية ٦٤ .

(٢) هذا الحديث رواه أبو نعيم في الحلية عن مقاتل وصعيد من قولهما .

(٣) سورة النجم : آية ٣٧ .

ونجاه الله عز وجل من النار ، فقال تعالى : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ (١)

قال أهل العلم :

لما استسلم إبراهيم (عليه السلام) لم يكتفِ الله عز وجل ببرد النار وإلاّ أهلكه (عليه السلام) برد النار ، ولكن كانت سلاماً له من كل سوء .

وعلى ذلك يجب أن يكون إظهار الفاقة لله عز وجل ، ورفع الهمة عما سواه .

فإنه شتان بين طالب الله ، وطالب من الله (٢) .

طالب حب الله ورضاه ، لأنه يستحق ذلك لذاته ، وبين طالب من الله النجاة . ولذلك يفسر ابن عطاء الله إجابة إبراهيم علية السلام (السابقة) : (حسبي من سؤالي علمه بحالي) .

أي إني نظرت فرأيته أقرب إلى من سؤالي ، ومن الوسائط ، وأنا أريد أن أتمسك بشيء دونه ، وهذا هو الإكتفاء بالله تعالى ، والقيام بحقوق حسبي الله .

ولذلك يذكر قول أحد العارفين :

" ... سلم طعامه للضيفان ، وولده للقربان ، وجسده للنيران " ، فأثني الحق عليه بقوله : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ (٣) .

ومن ثم سمي الخليل خليلاً ؛ لأنه تخلل سره بمحبة الله ، فلم يبقي فيه متسع لغيره (٤) ، من استسلام قلب إبراهيم (علية السلام) لله عز وجل أمرنا الله عز وجل أن لا نخرج عن ملته ، وأن نرعي حق تسميته بقوله تعالى : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ (٥) فحق

(١) سورة الأنبياء : آية ٦٩ .
(٢) الكتاب نفسه : ص ١٥٠ – ١٥٧ (بتصرف) .
(٣) كتاب نفسه : ص ١٥٩ (بتصرف) .
(٤) كتاب نفسه : ص ١٦٢ (بتصرف) .
(٥) سورة الحج : آية ٧٨ .

على كل من كان إبراهيمياً أن يكون عن تدبيره لنفسه بريأ .

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ (١) . وملته لازمها التفويض إلى الله تعالى ، والاستسلام في واردات الأحكام (٢) .

فكان إبراهيم مفوضاً إلى الله مستسلماً ، من ذلك ، يتعلم المؤمن أن من استسلم إلى الله في واردات الامتحان أعاد الله عليه شوكها ريحانا ، وخوفها أماناً (٣) .

فإن الله عز وجل يعيد عليه نار الدنيا برداً ، وسلاماً ، ويعطيك منة وإكراماً . لأن الله سبحانه وتعالى فتح بالأنبياء والرسل سبيل الهدى ، فسلك وراءهم المقتدون . والتزم اتباعهم المؤمنون ، كما قال سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ (٤) .

وقال عز وجل في شأن يونس عليه السلام :

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥) .

وبذلك يكون قد تبين وبال التدبير المذموم ، وخطره على حياد الإنسان .

الدعاء وإسقاط التدبير :

على الرغم من تحذير ابن عطاء الله من الركون إلى الأسباب ، إلاّ أنه قال في حكمه :

[لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجباً ليأسك] .

ويقصد بالعطاء بوجهه العام ، ما يخص الدنيا والآخرة.

وقد وضح زروق هذه الحكمة ، فرأى أن الأمد : المدة والمواد والعطاء ، ما تقع به الإجابة من المطالب .

والإلحاح : التكرر في الشيء من وجه واحد .

(١) سورة البقرة : آية ١٣٠ .
(٢) الكتاب نفسه : ١٦٦ .
(٣) الكتاب نفسه : ص ١٦٣ (بتصرف) .
(٤) سورة يوسف : آية ١٠٨ .
(٥) السورة الأنبياء : آية ٨٨ .

والدعاء : طلب مصحوب بأدب في بساط العبودية لجناب الربوبية .

والموجب للشيء : ما كان أصلا في وجوده .

اليأس : قطع المطامع عن المؤمل .

وإنما نهي عن اليأس في هذه الصورة لأنه مخالف للمقصود شرعاً فيها ، إذ الإلحاح في الدعاء مطلوب .

ووجود العطاء مضمون في قوله تعالى : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ .

دون حد بوقت ، ولا عين .

فاليأس إخلال بالأول ، لأنه يؤدى إلى تركه وتحديده ، وإجهاده في العطاء بالتهمم به وإرادة تيسيره .

وقد يقال :

اليأس تقصير في المضمون اعتباراً بصورته ، كما أن ترك الإلحاح تقصير في المطلوب بحقيقته .

أو يقال هو إجتهاد فيهما بإعطاء كل حكم نفسه .

ويرى أن كل الوجوه مذموم ، لأن التقصير فيهما لا يصلح ديناً ، ولا دنيا .

والإجتهاد فيهما متدافع ، فلم يبق إلاّ العكس ، وهو الاجتهاد في المطلوب وهو هنا الدعاء ، والتفويض في المضمون ، وهو هنا العطاء ، وذلك بالتزام الأول . والتفويض في الثاني [1] .

ويعني هنا بالاجتهاد ، العمل بالأسباب ، والاجتهاد فيها على حسب مطلوبة .

والمتدافع هو ما يعارض المطلوب، ويصطدم معه ، ومن ثم فإن المريد لله (عز وجل) لا يجعل همه في العمل بالأسباب ، وما يصطدم به من تأخر العطاء ، أو ما يمانع مطلوبه .

ولذلك فهو يدعو الله عز وجل أن يثبته ويقويه ، ويرفعه عن التعلق بالأسباب والاصطدام بها .

على الرغم من ذلك يدعو ويلح في الدعاء ، بأدبه دون حد بوقت ، ولا عين .

(١) قوة العيون : ص ١ : من ٦٨ ، ٦٩ .

ولا ييأس من تحقيق مطلوبه . لأن اليأس ليس من الإيمان .

ومن ثم فإن الأولى بالمؤمن التفويض في المضمون ، وهو هنا العطاء كما ورد في شرح زروق :

وهكذا يتبين من قول ابن عطاء الله : لا يكن تأخر أمد العطاء المضمون مع الإلحاح في الدعاء المطلوب موجباً ليأسك إذ قمت بما عليك ، ولم تر ما هو إليك ، لأن ذلك منك اجتهاد فيها بالصورة ، أو تقصير فيهما بالحقيقة ، أو تقصير في المطلوب ، واجتهاد في المضمون .

بل حسن ظنك بمولاك فيما به تولاك ، وذلك لا يتم لك إلاّ بالفهم عنه ، فيما واجهك به من خطابه ، إذ أطلق ولم يخصص بوقت ولا عين .

وعلى ذلك : قال ابن عطاء الله في حكمه بعد ذلك :

{ وهو ضمن لك الإجابة فيما يختار ذلك لا فيما تختار لنفسك }

ومن الشرح على هذه الحكمة الجليلة ما يأتي :

الإجابة المقصودة للسؤال هي الإسعاف للمقصود ، فقد قال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ، ولم يقل بعين ما أردتم ، ولا بما شئتم ولا كيف شئتم ،بل جعلها إجابة مطلقة في علمه، موقوفة على اختياره ، لا على اختيار العبد لنفسه ، كما بينه رسول الله ﷺ بقوله :

{ما من مؤمن يدعوا بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعه رحم إلاّ أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها ، قالوا : إذن أكثر ، قال ﷺ : والله أكثر} [1]

الإجابة حاصلة غير منحصرة في عين المطلوب ، ولا غيره ، وإنما جعلها

(١) رواه الأمام أحمد ، والحاكم ، وقال صحيح الإسناد من أبي الخدرى رضي الله عنه .

لحق تعالى في مختارة ، لا في مختار الداعي لثلاثة أوجه :

أحدها :

أن العبد جاهل بمصالحه ، وهو سبحانه العالم بالأصلح والصالح منها بالنسبة للعبد ، وقد قصده وهو كريم ، والكريم إذا قصد يعطى أفضل ما علمه لائقاً بقاصده .

الثاني :

إن في ذلك إبقاء لظهور سطوة الربوبية ، وإستبقاء لأحكام العبودية .

الثالث :

كذلك ليتحقق اضطرارك بنفي اختيارك ، فتكون في بساط القربة المقتضي لوجود الإجابة العينية ، والفتوحات الغيبية ، متأدباً .

والواقع بين الناس أن من يتأدب في البلاء ، والمصائب بالدعاء ، والصبر وجهاد النفس ، والعمل بالأسباب ، مع توكله عليه سبحانه وتعالى يجد في نفسه حلاوة الإيمان، والقوة والتمكين، والعلم والمعرفة من واقع ما تحمله وما رآه من الله عز وجل .

ومن ثم والجدير بالذكر :

لقد أشار صلى الله عليه وسلم بأن الدعاء مخ العبادة وأساسها ، إذا التزم الداعى بآدابه وأخلاقه ، حينئذ يكون داعياً وعابداً ، وعابداً و داعياً ، ذلك لأن الدعاء والعبادة لا ينفصلان.

وهكذا يكون راضياً بما قدره الله (عز وجل وقضاه) ، فيعلم بعين اليقين، وبنور ربه أن أحواله كلها خير من ضراء ، وسراء .

الخاتمـــة

١- لقد تبين أن هذا النهج عظيم لا ينفي أبداً العمل بالأسباب ، ولا فيه قط أدنى جبر ، ولا تواكل في سلوك الإنسان ، بل على النقيض من ذلك يدعو إلى العمل بالأسباب ، والإخلاص فيها والسعي ، لكن مع العلم بأن العمل لله عز وجل هو الدائم، وهو الذي يجب فيه السعي .

أما العمل بالركون إلى الأسباب والتعلق بها ، وشحذ القلب بهمومها ، هو الزائل ، ولا يستفيد منه الإنسان البتة ، إلاّ حزنه وعذابه وضلال طريقه وثقله لأعباء مادية زائلة .

٢- إن إسقاط التدبير كما وضحه ابن عطاء الله السكندري هو عرض حقيقة كل الأشياء أمام الإنسان بواقعية ملموسة ، وببداهة شديدة ، وبضرورة عقلية واضحة الراحة والسكينة والطمأنينة للقلوب ، فهو غير مغال فيما يجب على الإنسان . اعتقاده من زهد وفناء ، وبين العمل بالأسباب ، والدعاء ، والعبادة بالتوكل على مسبب الأسباب عز وجل .

٣- إنه بحق علاج نفسي صحيح دون عقاقير كيميائية ضارة ، وتطهير للنفوس ، وعلاج لأمراض القلب المستعصية، يشمل كل الحياة بأحداثها.

٤- في الواقع أن قدر الإمام ابن عطاء الله السكندري عظيم : في علمه. ومعرفته بربه خاصة في هذا الموضوع القيم ، الذي تعد قيمته في خواطر الإمام الربانية التي هي من لدن حكيم عليم وخبير ، قال الله تعالى ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾ .

ولذلك فمهما كتبت فيه ، أرى أنه مازال يحتاج إلى بحوث أخرى توضح بحوره العلمية.

ولماذا لا !

فنحن في أشد الإحتياج إلى فهمه، وبحثه ، والعمل به في هذا العصر

المادى الذي أشرت إلى سوء أحوال الإنسان فيه النفسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية في أعبائها الملدية والفكرية .

كل شئ فيه إلاّ القليل مشوه ، بضلال فكر الإنسان وسلوكه ، وركون حياته على اكتشافاته المادية فقط ، وتأثره بها على أنها كل شئ له ، ومن الجدير بالذكر أن تقدم العلم وإن كان ماديا على الأكثر لا يمنع ولا يفرض التوكل الصحيح على الله عز وجل ، والعمل لوجه الله (عز وجل) ، حيث إن هذا العلم لا يكون إلاّ بمخلوقاته (سبحانه وتعالى) ، والأسرار فى الموجودات ، وكل ذلك يثبت الإنسان على الإيمان بالله عز وجل ، ووحدانيته ، والعمل لما بعد موته .

ومن ثم فإني أرى أن انسان هذا العصر مريض ، مهما أخذ من علاج من صنع اكتشاف عصره .

حيث إن مرضه في روحه ، وفي به ، وبالتالي تأثر عقله وفكره ، وسقمت نفسه بهموم ، وغموم ثقل جسده بها ، حيث أراد أن يحمل أعباء مادية عاتية مهلكة ، قد جعلها ضرورات لتحقيق سعادته ، ولذلك غابت شمس الحقيقة على كثير من أبناء هذا العصر .

وهذا هو السبب في نظري لا غير في ظهور تيارات فكرية فاسدة بين إفراط في فهم الدين ، وسلوكه الصحيح ، واستقامة الجوارح ، وتذوق القلب لحلاوته .

وبين تفريط ، وبعد وتباعد عن سعادة الإنسان ، وصحيح السلوك .

كلٌ يطاحن في الآخر ، ووراء كل ذلك نفوس أمارة بالسوء تغذى هؤلاء ، وهؤلاء بفكر أسود مضل ، ضلوا به لإثبات ذواتهم لا غير .

وللأسف فإن عوام الناس ، وطلاب الحقيقة على الأكثر في تيهة فكرية وسلوكية بين هؤلاء ، وهؤلاء يسمعون للإفراط ، والتفريط ، فمنهم

من يتبع هذا ويرى أنه الحق لا غير ، ويتعصب له .

ومنهم من يرى أن ذاك هو الحق لا غير ، والسلوك الصحيح المعتدل قليل في زحمة هؤلاء وهؤلاء .

لا أريد الإطالة في عرض ما أراه مؤسفاً ، ومحزناً ، لكن الأمل موجود فالخير في رسول الله ﷺ ، وفي أمته إلى يوم الدين .

يرحم الله الإمام ابن عطاء الله السكندري ، وجزاه الله عنا خير الجزاء .

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم .

٢- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : وضعه محمد فؤاد عبد الباقي : طبعة دار الريان للتراث سنة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

٣- سنن ابن ماجة (أبو عبد الله محمد بن يزيد) : تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي : طبعة عيسي الحلبي لسنة (١٣٧٢ هـ - ١٩٥٢م) .

٤- صحيح البخاري : (محمد بن إسماعيل البخاري) : تحقيق فؤاد عبد الباقي : طبعة (بيروت).

٥- صحيح مسلم (الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري) : تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي : طبعة (بيروت): سنة ١٤١١ هـ ١٩٩١م.

٦- مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني : طبعة (بيروت) .

٧- التعريفات : للشريف على بن محمد على السيد الزين أبي الحسن

الحسيني الجرجاني : طبعة البابي الحلبي ١٣٥٧ هـ ١٩٣٨ م .

٨- القاموس المحيط : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز بادي : ط الحلبي الثانية سنة ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م .

٩- المصباح المنير : أحمد بن محمد على المغربي : ط دار المعارف (القاهرة) لسنة ١٩٧٧ م .

١٠- لسان العرب : ابن منظور : طبعة المعارف (القاهرة) .

١١- ابن تيمية (حياته وعصره- آراؤه وفقهه) الإمام محمد أبو زهرة: طبعة دار المعارف (القاهرة) .

١٢- ابن عطاء الله السكندري وتصوفه : الأستاذ الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازاني : طبعة الأنجلو المصرية : الطبعة الثانية (١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م) .

١٣- إتحاف أهل العناية الربانيـــة في اتحاد طرق الله : الشيخ فتح الله بن أبى بكر البناني : طبعة (العامرة الشرقية) بمصر : الطبعة الأولي سنة ١٣٢٤ م .

١٤- التفكير فريضة إسلامية : الأستاذ عباس محمود العقاد : طبعة دار نهضة مصر .

١٥- التنوير في إسقاط التدبير : الإمام ابن عطاء الله السكندري : تحقيق وتعليق (موسى على المرسى ، وعبد العال أحمد العراقي) : طبعة القاهرة الحديثة .

١٦- الحكم ومعها بعض المكاتبات ، والمناجاة : العارف بالله الإمام ابن عطاء الله السكندري : للشيخ : مصطفى أبو العلا / طبعة الجندي (القاهرة) .

١٧- الجواهر الجامعة في الطريقة الشاذلية : العارف بالله الشيخ ، أبو حامد الراضي : طبعة النجاح سنة ١٣٢٤ هـ .

١٨- الدرر الكامنة : ابن حجر العسقلاني : طبعة المعارف .

١٩- الديباج في المذهب : ابن فرحون المالكي (برهان الدين إبراهيم بن على بن محمد بن فرحون العميرى) : طبعة دار التراث (القاهرة) .

٢٠- الرسالة القشيرية : الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيرى : ط صبيح .

٢١- الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية : الإمام أحمد بن عجيبة الحسيني : تحقيق عبد الرحمن حسن محمود : ط عالم الفكر .

٢٢- القصد والرجوع إلى الله : الإمام المحاسبي : طبعة دار الكتب العلمية (بيروت - لبنان) : الطبعة الأولي ١٤٠٦ م - ١٩٨٦ م .

٢٣- الطبقات الكبرى : الإمام عبد الوهاب الشعراني : ط المكتبة التوفيقية (القاهرة) .

٢٤- الغنية لطالبى طريق الحق : من الأخلاق والتصوف والآداب الإسلامية : الشيخ عبد القادر الجيلاني : طبعة مصطفي البابي الحلبى الطبعة الثالثة : سنة ١٣٧٥ هـ- ١٩٥٦م.

٢٥- الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية : الإمام أحمد بن محمد بن عجيبه الحسيني : تحقيق الشيخ عبد الرحمن حسن محمود : طبعة عالم الفكر.

٢٦- المفاخر العلية : الشيخ أحمد ابن محمد بن عياد الشافعي : طبعة الحلبي .

٢٧- إيقاظ الهمم في شرح الحكم : الإمام أحمد بـــن عجيبة الحسيني : طبعة السعادة : سنة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

٢٨- بدائع الزهور في وقائع الزهور : الإمام محمد بن أحمد بن إياس الحنفي : تحقيق محمد مصطفي : طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب :الطبعة الثانية سنة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ، وطبعة الحلبي.

٢٩- بغية الدعاة في طبقات اللغويين والنجاة : أبي الفضل جلال

الدين ابن عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: طبعة السعادة ١٣٢٦ هـ.

٣٠- تبويب الحكم العطائية : العارف بالله الشيخ على بن حسام الدين الهندي : طبعة دار التوفيق بالقاهرة سنة ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٣١- تقريب الأصول لتسهيل الوصول لمعرفة الله والرسول : شيخ الإسلام أحمد بن السيد زيني دحلان : طبعة البابي الحلبي : الطبعة الأخيرة سنة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م.

٣٢- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة : جلال الدين عبد الرحمن السيوطى : تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم : طبعة عيسى البابي الحلبي : الطبعة الأولي : سنة ١٩٦٧ - ١٣٨٧.

٣٣- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : الحافظ أبي نعيم الأصفهاني: طبعة السعادة : سنة ١٣٧٤هـ - ١٩٧٤ .

٣٤- درة الأسرار : السيد الحميرى المعروف بابن الضباغ : دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا : طبعة السعادة سنة (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).

٣٥-روضة التعريف بالحب الشريف : الوزير لسان الدين الخطيب : تحقيق وتعليق (عبد القادر أحمد عطا عبد الستار) : طبعة السعادة .

٣٦- شرح الشيخ عبد الله الشرقاوى على حكم الإمام ابن عطاء الله السكندري : طبعة الحلبي سنة ١٩٥٨م .

٣٧- شرف العقل وماهيته : الحارث بن أسد المحاسبي : تحقيق مصطفي عبد القادر عطا : ط دار الكتب العلمية (بيروت - لبنان) سنة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

٣٨- شذرات الذهب : ابن عماد الحنبلي : طبعة الحلبي .

٣٩- طبقات الشاذلية : الشيخ : حسن الفاسي الشاذلي : طبعة : مكتبة الرازي .

٤٠- طبقات الشافعية : الإمام عبد الوهاب بن تقى الدين السبكي : طبعة دار المعرفة (بيروت) .

٤١- عقد الدرر واللآلئ في بيان فضل الفقر والفقراء : الشيخ فتح الله ابن أبي بكر البناني : طبعة الجمالية بمصر الأولي سنة ١٣٣٠ هـ .

٤٢-غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية : أبو عبد الله محمد إبراهيم ابن عباد النفره الرندي : طبعة السعادة : الطبعة الأولي سنة (١٣٨٠هـ - ١٩٧٠) .

٤٣- قرة العين في شرح حكم الإمام ابن عطاء السكندري : العارف بالله أحمد بن زروق : طبعة دار التراث العربي (بيروت - لبنان) .

٤٤- قواعد التصوف : الإمام أحمد بن زروق : تصحيح وتعليق محمد زهري البخاري طبعة الكليات الأزهرية : الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .

٤٥- قوانين حكم الإشراق إلى كافة الصوفية بجميع الآفاق : الإمام جمال الدين أبو المواهب الشاذلي : طبعة الكليات الأزهرية ، منقول من النسخة المطبوعة في سوريا سنة (١٣٨٠هـ - ١٩٦١م) .

٤٦- كشف المحجوب : ألفه بالفاسيه (أبو الحسن على الهجوبري) ترجمه عن الإنجليزية الكاتب الصوفي (محمود أحمد ماضي أبو العزائم الشاذلي) : طبعة التراث العربي .

٤٧- كشف الظنون : حاجى خليفة : طبعة المعارف التركية : سنة ١٣٦٠هـ - ١٩٤١م.

٤٨- لطائف المنن في مناقب المهتدين ، وقدوة السالكين سيدى أبى العباس أحمد بن عمر الأنصاري المرسى ، وشيخه قطب الأقطاب : طبعة الشعب سنة (١٤٥٦ هـ ١٩٨٦م) .

٤٩- مجموع الرسائل الكبرى : الإمام ابن تيمية : طبعة الكتب العلمية (بيروت - لبنان) (سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

٥٠- مدارج السلوك إلى مالك الملوك : العارف بالله أبو بكر محمد البناني الشاذلي : طبعة الجمالية بمصر الطبعة الأولي سنة ١٣٣٠هـ .

٥١- معراج التشوف إلى حقائق التصوف : الإمام أحمد ابن عجيبة الحسيني: ط الاعتدال (سوريا) الطبعة الأولي (١٣٥٥هـ - ١٩٣٧م) .

٥٢- معرفة الأسرار : العارف بالله أبي عبد الله محمد بن علي الترمذي الحكيم : تحقيق وتعليق د / محمد إبراهيم الجيوشي : طبعة دار التأليف .

٥٣- مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح : الإمام ابن عطاء الله السكندري : طبعة صبيح .

٥٤- مناقب السيد محمد بن أحمد أبي بكر الشاذلي البشرطى : طبعة مصطفي البابي الحلبي سنة ١٣٥٣هـ - ١٩٣٤ م .

٥٥- مناظرات ابن تيمية مع فقهاء عصرة : د / السيد الحميلي : طبعة دار الكتاب العربي (بيروت - لبنان) .

٥٦- نور التحقيق في صحة أعمال الطريق : الأستاذ حامد إبراهيم محمد صقر الشاذلي : طبعة دار التأليف سنة (١٣٩٠هـ - ١٩٩٧م) .

الفهـــرس

مقدمة . ٢١٩

خطة البحث . ٢٢٢

١- الباب الأول (إسقاط التدبير.. وحياة ابن عطاء الله السكندري) . ٢٢٣

- تمهيد . ٢٢٣

○ الفصل الأول : (حقيقة الإيمان.... وأهمية كتاب إسقاط التدبير) . ٢٢٦

حقيقة الإيمان . ٢٢٦

سبب وجدان الحرج في النفس . ٢٢٧

مجمل ما تبين في حقيقة الإيمان . ٢٢٩

مقامات اليقين وإسقاط التدبير . ٢٣٠

إسقاط التدبير ، ومقام العبودية . ٢٣٢

أفضل الكرامات . ٢٣٣

○ الفصل الثاني (حياة ابن عطاء الله وأثر إسقاط تدبيره) . ٢٣٦

من حياة الإمام ابن عطاء الله السكندري . ٢٣٦

اسمه ، ولقبة ، ونسبه. ٢٣٧

من شيوخه . ٢٣٩

تأثره بالمرسى (رضي الله عنه) . ٢٤٠

بعض شهادات عصره له ٢٤٥

من مؤلفاته . ٢٤٨

٢- الباب الثاني : (قواعد إسقاط التدبير ، وأسسه) . ٢٥٤

تمهيد

○ الفصل الأول : (العلم والمعرفة والعمل بهما) . ٢٥٦

مقدمة

الطريق الصحيح للعلم والمعرفة. ٢٥٨

أهمية المعرفة .. وعلاقتها بإسقاط تدبير القلب . ٢٥٩

العلم المتلقي وخير العلوم . ٢٦٣

درجات الناس في تلقي العلم . ٢٦٦

الحكمة من خلق الجن والأنس . ٢٦٧

○ الفصل الثاني : (نعمة العقل والتدبير الممدوح) . ٢٧٠

مقدمة . ٢٧٠

مفهوم التدبير . ٢٧٣

إسقاط التدبير ، ومذهب الجبر . ٢٧٣

أقسام التدبير . ٢٧٦
التدبير للدنيا . ٢٧٧
نعمة العقل . ٢٧٧
الناس قسمان . ٢٧٩
جهاد النفس ليس في متاعب العباد . ٢٨٤
المذموم والممدوح . ٢٨٤
المتجرد ، والمتسبب . ٢٨٦
وقفة مع ابن عطاء الله . ٢٨٨
الحكمة من خلق التدبير والاختيار. ٢٨٩
فهم أسباب إسقاط التدبير ٢٩٠
الأسباب التي توجب صبر العباد ، وثباتهم عند البلاء . ٢٩٤
تعلم رسوخ اليقين . ٢٩٩
علامات إشراق التيقين . ٢٩٩
○ الفصل الثالث : (وبال التدبير وخطره) . ٣٠٣
تمهيد . ٣٠٣
انبعاث القلب في طلب الشئ . ٣٠٤
الاعتماد على العمل وقهر النفس . ٣٠٥
التدبير من النفس الغافلة ، ومحله القلب . ٣١٢
استسلام القلب ، والعبرة من استسلام الخليل (علية السلام). ٣١٣
الدعاء وإسقاط التدبير . ٣١٣
الخاتمة ٣١٧
المصادر والمراجع ٣١٩
الفهرس ٣٢٥